مارد من الشرق

تأليف

أحمد قاسم جودة

الكتاب: مارد من الشرق

الكاتب: أحمد قاسم جودة

الطبعة: ٢٠٢٢

الطبعة الأولى ١٩٥٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جودة ، أحمد قاسم
مارد من الشرق / أحمد قاسم جودة
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٩ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٠ – ٥٦٣ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٣٩٢ / ٢٠٢٢

مارد من الشرق

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مارد من الشرق

إنه مارد الشرق الجديد ينطلق من "قمقم" الاستعمار البريطاني بعد أن ظل حبيساً في جوفه مئات من السنين.

لقد انطلق المارد من محبسه بعد أن طال به البحث عن مخرج ينساب منه إلى عالم الحرية والنور، وأوشك حين طال به المقام في عالم العبودية والظلام، أن يحطم "القمقم" الذي احتواه وأن يخرج هائجاً هائماً على وجهه لا يبقى ولا يذر. لولا أن بعث أصحاب "القمقم" رسولاً منهم، هو اللورد لوي مونتباتن، فأدرك بنافذ بصيرته مدى الكارثة التي تهدد قومه إذا أصروا على استعباد الهند واستمرأوا المضي في احتلالها، وإذلال أهلها ومطاردة زعمائها والزج بهم خلف جدران السجون.

وهكذا قدر للهند المستعبدة أن تخرج إلى عالم الحرية والاستقلال، وقدر للمارد الحبيس أن ينطلق إلى العالم الذي طال حنينه إليه، وطال عذابه في انتظاره، وتعددت تضحياته الغالية في سبيله.

ولم تكد تمضي على انطلاق المارد أشهر معدودات حتى أثبت للملأ أن الحبس الطويل في سجن الاستعمار لم يفل من عزيمته، ولم ينل من كرامته وقوته.

لقد توسلت بريطانيا إلى قادة الهند بكل نوع من أنواع التوسل أن يبادلوها صداقة بصداقة، وأن ينسوا فواجع الماضي وأخطاءه وتضحياته،

وأن يتركوا بناء "الكومنولث" أو "رابطة الأمم البريطانية" قائماً على أساسه المعروف، وهو الاعتراف بسيادة التاج البريطاني ممثلاً في منصب الحاكم العام.

ولكن ذاكرة المارد لم تستطع أن تنسى كل شيء، ومعدته لم تعد تحتمل أن تهضم كل شيء. ولهذا صمم على تحطيم رابطة السيادة الرمزية ولو ذهب "الكومنولث" إلى عالم الفناء! ووقف الزعيم الشرقي العظيم نهرو يصارح الإنجليز والعالم أجمع في مواجهة الليدي مونتباتن من فوق منبر الجمعية التأسيسية في دلهي، بأن الهند ستصبح جمهورية مستقلة، لا تعترف برابطة العبودية التي تجمع بين دول "الكومنولث"، وهي الاعتراف بالتاج البريطاني رمزاً للوحدة بين تلك الدول.

وانحنى السجان القديم العتيد أمام إرادة المارد الجبار الذي انبعث من ظلام الشرق الأقصى،

وبينما كان المارد الطليق ينفض عن ثيابه غبار الذل والعبودية على هذا النحو، لم يفته أن يبادر في الوقت نفسه إلى إصلاح شأنه، وترميم بنيانه، وإعداد العدة لمستقبل زاهر لا يهدده شبح العبودية أو الحرمان.

والذين أسعدهم الحظ بمتابعة النهضة الجبارة التي تنشر ظلها الوارف على أنحاء الهند اليوم من أقصاها إلى أقصاها، ووقفوا على مدى قوة الدفع والاندفاع الهائلة التي تسير بها الهند الآن في ميادين الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والعمراني والإنساني على هدي تعاليم غاندي وروحانيته الخالدة، وتحت قيادة نهرو وعزيمته التي لا تعرف الملل والكسل، الذين

أسعدهم الحظ مثلي بمتابعة هذا كله، يستطيعون أن يؤمنوا كما آمنت بأن الهند جديرة بأن تكون موضع فخرنا جميعاً نحن أبناء الشرق الذي طال كفاحه وحنينه إلى الحرية والاستقلال.

وإني لأرجو أن يجد القراء في هذه الصفحات عن رحلتي إلى الهند مرتين في عشر سنوات، ما يؤيد عقيدتي الراسخة في مستقبل هذا البلد الشرقي الكبير الذي طالما ربطت بيننا وبينه رابطة الكفاح المشترك، ضد الاستعمار المشترك.

أحمد قاسم جودة

قبل الاستقلال

أول جولة في ربوع الهند

بعثة وطنية

في أوائل سنة ١٩٣٩ رأى الوفد المصري أن يوفد إلى الهند أول بعثة سياسية مصرية تشترك في مؤتمر وطني أجنبي، فألف لهذا الغرض هيئة من أربعة أشخاص هم: المغفور له الأستاذ محمود بسيوني بك، وقد أسندت إليه رئاسة الهيئة، والأستاذ أحمد حمزة بك، والأستاذ محمود أبو الفتح بك، وكاتب هذه السطور بوصفه عضواً وسكرتيراً للبعثة. وكانت مهمتنا تمثيل الوفد المصري في الدورة الثانية والخمسين التي عقدها حزب المؤتمر الوطني الهندي في تريبوري في شهر مارس سنة ١٩٣٩.

هذا هو الاستعمار!

ألقت الباخرة مرساها في ميناء بمباي في اليوم التاسع من شهر مارس– أي بعد تسعة أيام من مغادرة بورسعيد– ولم نكد نهبط من الباخرة حتى وجدنا في استقبالنا جمهورًا كبيرًا من شباب المؤتمر وفتياته تتقدمه مسز مونشي، زوجة وزير الداخلية في بمباي، وبعض كبار رجال المؤتمر، وكان معظم الزعماء قد غادروا المدينة إلى تريبوري لحضور الدورة السنوية التي ذهبنا لشهودها، والتي حدد لبدئها اليوم العاشر من شهر مارس.

وكأنما قُدر لنا أن نستقبل مع هواء بمباي الحار في لحظة وصولنا ريح الخلاف الطائفي الذي أفاد من ورائه الإنجليز كل شيء، وتأخر من جرائه الهنود في تحقيق أعز ما تصبو إليه الأمم وهو الحرية والاستقلال.

فقد خف لاستقبالنا في الميناء عدد من كرام المسلمين الذين لا ينتسبون لحزب المؤتمر، وقد عز عليهم فيما يظهر أن يحتكر رجال المؤتمر

واجب تكريمنا في سرادق أقاموه خارج الميناء، فلم يشأ هذا الفريق من المسلمين أن يشاركهم فيه، ولم يخف امتعاضه لهذا المظهر الذي لم تكن لنا حيلة فيه، إذ نحن ضيوف المؤتمر الوطني قبل كل شيء وإن كان من واجبنا بالطبع ألا نؤذي شعور أحد من الهنود أياً كانت ميولهم ومللهم، فكيف بذلك الفريق من المسلمين الكرام الذين جشموا أنفسهم مؤونة استقبالنا رغم علمهم بقدومنا ضيوفاً على الطرف الآخر!

وكان موقفاً مفاجئاً بالغ الدقة متناهياً في الحرج، ولكنه لحسن الحظ لم يلبث طويلاً، وانتهى بتبادل عبارات الشكر والمجاملة الشخصية مع الفريق المناوئ للمؤتمر، والوعد بقبول أية دعوة توجه إلينا للاجتماع بهم إثر عودتنا من جلسات المؤتمر في تريبوري. وهو ما تحقق بالفعل طوال زيارتنا إذ حرص رجال المؤتمر أنفسهم على تيسير اجتماعنا بخصومهم سواء في حفلاتهم أو في حفلات دعينا إليها على انفراد.

وذهبنا إلى سرادق رجال المؤتمر في الميناء، وقد حمل كل منا في عنقه عقوداً بعضها فوق بعض من الورد والياسمين، وهي العقود التقليدية التي اعتاد الهنود على اختلاف أديانهم أن يطوقوا بها أعناق ضيوفهم رمزًا لصادق الترحيب والتكريم عند الاستقبال والتوديع.

وقد استمعنا في السرادق إلى خطاب حماسي من سكرتير حزب المؤتمر في بمباي، كما تليت علينا برقية تلقاها مستر مونشي (وزير الداخلية) من (بابو) أي الوالدي، وهو التوقيع الذي كان يذيل به المهاتما غاندي برقياته ورسائله إلى (أبنائه) زعماء المؤتمر وخاصة الأقربين. وفي هذه البرقية طلب

الزعيم العظيم إلى مستر مونشي أن ينوب عنه في الترحيب بنا، وإبلاغنا تمنياته في أن تكون هذه الزيارة فاتحة لتعاون وثيق في المستقبل، لتعزيز ما بيننا من روابط لا تنفصم. وقد أنابتني البعثة في الرد، فألقيت كلمة موجزة بالإنجليزية شكرت فيها للمستقبلين عاطفتهم، متمنيًا للهند ما تستحق من حرية واستقلال، منوهًا بجهاد الزعيم الفذ غاندي، شاكرًا له ترحيبه القلبي في برقيته الرقيقة.

ومضت بنا السيارات إلى حي "ملابار هل" الأرستقراطي في المدينة، حيث كان يقطن زعيم ممثلي المؤتمر في المجلس التشريعي المركزي بنيودلهي مستر بولاباي ديزاي. وكان من أعظم الشخصيات السياسية وأكفأ رجالات الهند وقد بدأ حياته موظفاً صغيراً في الحكومة. ثم حصل على إجازة الحقوق واعتزل حياة الوظائف بعد أن بلغ منصب المحامي العام في بمباي، ليشتغل بالمحاماة والسياسة، فأعانته مواهبه الخطابية إلى جانب ما أوتي من روح المثابرة والجد والطموح، على تحصيل ثروة ضخمة، فضلاً عما كسب من مكانة سياسية رفيعة تبوأها عن جدارة، وقد توجها حزب المؤتمر الوطني باختياره زعيمًا للمعارضة –أي لممثلي حزب المؤتمر– في المجلس المركزي بنيودلهي. وقد حضرنا جلسة من الجلسات العاصفة بهذا المجلس، كان لبولاباي ديزاي وزملائه فيها موقف رائع إزاء وزير المالية الإنجليزي إذ ذاك مستر جريج، وكان هذا الوزير قد قاطع نائب زعيم المعارضة مقاطعة غير كريمة، فسلقه مستر ديساي بلسانه، ودعا المجلس إلى رفض عدة مشروعات بقوانين احتجاجاً على سوء سلوك الوزير، حتى اضطر الوزير إلى الوقوف في الجلسة معتذراً عما بدر منه!

وقد كان أول ما استلفت نظري في بمباي ضخامتها وفخامة مبانيها المشيدة على الطراز الإنجليزي، ونظامها الإنجليزي في المرور (وهو شمالي) كإنجلترا وهناك أحياء في قلب بمباي يكاد يخيل للمرء فيها –لولا اختلاف الطقس– أنه في قلب مدينة لندن. ومن طريف ما يذكر بهذه المناسبة أن أراضي البناء هناك تباع بما يعادل أسعارها في لندن نفسها! ولا غرو فقد وضع إحصاء مقارن قبيل الحرب ثبت منه أن أغلى مستوى المعيشة في العالم هو مستواها في مدينة ريود جنيرو عاصمة البرازيل، وتليها مباشرة بمباي!

وقد استلفت نظرنا في بمباي لأول وهلة، كما استلفت نظرنا في سائر أنحاء الهند التي زرناها من بمباي إلى بشاور، ما يستلفت قبل سواه ولا شك نظر كل زائر للهند، وهو القداسة التي تتمتع بها البقرة عند الهندوسيين، إلى الحد الذي يمكنها من اعتراض حركة المرور أمام السيارات أو عربات الترام، أو دخول أي مكان تشاء دون أن يزعجها أحد أو تحدثه نفسه بإملاء إرادته عليها وتوجيهها حيث لا تريد إلا باللين والمعاملة الحسنة!

وكذلك لفت نظرنا شيء آخر يوم نزولنا في بمباي هو كثرة الحدأ والغربان التي تحوم في جو المدينة، وقد أبدى المرحوم بسيوني بك هذه الملاحظة بينما كنا نتناول الشاي في ضيافة وزير الداخلية، مستر مونشي، بحضور رئيس الوزراء الدكتور خير (وهو هندوكي لا مسلم كما قد يتبادر إلى الذهن عند ذكر اسمه). وبقية وزراء بمباي، وهي إحدى الولايات التي ظفر فيها حزب المؤتمر بأغلبية تؤهله لتولي مقاليد الحكم، وقد قال بسيوني بك في بساطته الماكرة اللطيفة:

– إن لديكم من الغربان والحدأ مثل ما لدينا في مصر.

فأجابه الدكتور خير على الفور ضاحكاً:

– هذا يدلكم على متانة الروابط التي تجمع بين البلدين! على أنه تبين أن في الأمر سراً لا يمت إلى الضحك أو التسلية بسبب، ذلك أن بمباي تنفرد دون سائر بلاد الهند، والعالم أجمع، بوجود أكبر (مدفن) لطائفة تسمى طائفة البارسيين، ونسميه بالمدفن، أو المقبرة، من باب التجوز الشديد، لأن هذه الطائفة لا تدفن موتاها كما يفعل المسلمون، ولا تحرقهم كما يفعل الهندوكيون، بل تلقي بهم في مكان يسمونه "برج الوحدة"، وتتركهم للطيور الجارحة تمزق أجسادهم، وتلتهمها إرباً إرباً، وبذلك لا تدنس عناصر الطبيعة التي يقدسونها! وهناك عند "برج الوحدة" في قلب بمباي شهدت أكبر مجموعة من النسور والحدأ والغربان، بعضها يحوم في الجو باحثاً عن جثة تنهش، ومعظمها واقف حول السور الطويل ينظر وينتظر!

والبارسيون، وهم يعبدون النار، يعتبرون أغنى وأرقى الطبقات في الهند، وعددهم لا يزيد على ١٤٠ ألفاً يعيش معظمهم في بمباي، وتتركز في أيديهم رغم قلتهم، أعظم صناعات الهند، وهم يملكون أكبر الفنادق ويكادون يحتكرون الربا وشئون المال حيثما كانوا، ولا يشغلون أنفسهم بالحركة الوطنية إلا بقدر يسير. ومن أشهر أغنيائهم وأغنياء الهند كلها مستر تاتا صاحب مصانع النسيج والصلب والطيران والصابون وغيرها في الهند.

المؤتمر الوطني

غادرنا بمباي في مساء يوم وصولنا بعد أن تناولنا العشاء في دار مستر ديزاي، وقد شاهدنا في محطة بمباي –وهي على نظام محطات لندن تقع في قلب المدينة– كما شاهدنا في غيرها من المحطات لافتات كبيرة حرص الإنجليز على إبرازها بأضخم الحروف، وقد كتب على إحداها "ماء للمسلمين"، وعلى أخرى بقربها "ماء للهندوكيين"!

وهكذا كان الإنجليز حريصين على إشعال جذوة الخلاف بين الهندوس والمسلمين بإبراز هذه الإعلانات، التي كانوا يتظاهرون بأنهم لا يقصدون من ورائها شيئاً سوى تفادي الصدام الذي يفرضون وقوعه دائماً بين الطرفين.

استقلت البعثة قطار بمباي في طريقها إلى جبلبور (أي مدينة الجبل أو الصخور)، حيث قرر المؤتمر الوطني أن يعقد دورته لذلك العام في بلدة تريبوري، جرياً على التقليد الذي جرى عليه منذ سنوات عدة، إذ رأى أن يتغير مكان انعقاد دورة المؤتمر السنوية عاماً بعد عام، وأن يختار لانعقاده قرى صغيرة في شتى أنحاء الهند حتى تتاح لأهل تلك القرى وما حولها فرصة الانتعاش الذي يصحب دورات المؤتمر أينما كانت، إذ تقام العشش كما تؤجر الأماكن الخالية، وتنظم المرافق الصحية وتعد المطاعم، ويقام معرض للصناعات والمنتجات الهندية، ونحو ذلك من مظاهر النشاط التي يقتضيها اجتماع العدد الهائل الذي يشهد دوره المؤتمر في كل عام، وهو يتراوح بين مائة ألف وربع مليون شخص يفدون لمشاهدة تلك الدورات من شتى أنحاء البلاد، وقد جرت العادة بسبب ضخامة هذا العدد على أن تعقد

الجلسات في الخلاء، حيث تفرش أقمشة الخيام على الأرض فيستوي عليها الحاضرون جالسين يشاهدون عن بعد زعماء المؤتمر وأعضاء لجنته العاملة جالسين على الخيام مثلهم، فوق منصة فسيحة أعدت للخطباء، وجهزت بآلات "الميكروفون".

نشأة المؤتمر وأغراضه

السياسة الهندية، كالسياسة في سائر بلاد العالم، مليئة بالمفارقات والمتناقضات التي لا يكاد يفهمها أو يهضمها إلا الذين يحيطون بدقائقها ودخائلها.

ومن هذه المتناقضات على سبيل المثال أن المرحوم الدكتور مُحَمَّد علي جنة (لا جناح كما يخطئ كثيرون)، زعيم حزب الرابطة الإسلامية سابقاً، ينحدر من جد هندوسي! ومع أنه كان أول رئيس لدولة باكستان، إلا إنه لم يكن صاحب هذه الفكرة –أي إنشاء الدولة الإسلامية في الهند–، بل لم يكن يعتنقها حين كان يدعو إليها الآخرون، ويعتبر هو نفسه أكبر حجة ضد الباكستان، كما سنبين فيما بعد.

ومن هذه المتناقضات أن المهاتما غاندي لم يكن رئيساً لحزب المؤتمر الهندي، ولا حتى عضواً مشتركاً فيه إذ استقال منه عام ١٩٣٤، ولكنه مع ذلك كان روح المؤتمر وصاحب النفوذ الأكبر فيه دون منازع!

ومنها أخيراً، وليس آخراً، أن المؤتمر الهندي ما كان ليوجد أو يولد في سنة ١٨٨٥ لولا أن موظفاً إنجليزياً متقاعداً يدعى ألان هيوم دعا إلى تكوينه، ليكون أداة استشارية تمد الحكومة بآرائها ونصائحها في المسائل

الإدارية والاجتماعية.

بل إن الإنجليز أنفسهم هم أصحاب الفضل في توجيه المؤتمر منذ إنشائه وجهة سياسية، إذ رأى اللورد دفرين حاكم الهند إذ ذاك أن من مصلحة الاستعمار البريطاني أن توجد إلى جانب أداة الحكم الاستعمارية في الهند، معارضة ودية موالية للاستعمار وإن كان اللورد دفرين قد ندم بعدئذ على نصيحته ووصف المؤتمر بأنه "أقلية حقيرة"!

وقد ظهر حزب المؤتمر في عالم الوجود في أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥، حين عقد دورته الأولى في بمباي بحضور ٧٢ وفداً وظلت دوراته تتوالى، وأعضاؤه يتضاعفون، مع محافظته على الولاء للبريطانيين حتى كانت الحرب العالمية الأولى، حين قبض غاندي على زمام المؤتمر، وجعل منه أداة يحسب حسابها، فلم تكد الحرب الأولى تضع أوزارها حتى أثارها غاندي حملة شعواء على السياسة البريطانية والاستعمار البريطاني في الهند، فكانت حركة العصيان المدني، والمقاومة السلبية في سبيل الاستقلال الذاتي الذي ظل شعار المؤتمر إلى أن كانت سنة ١٩٢٩ فأصبح شعاره الاستقلال التام، لا مجرد الاستقلال الداخلي على نظام "الدومنيون".

والمؤتمر الوطني هو بلا جدال أعظم أحزاب الهند نفوذاً، وأضخمها عدداً، وأدقها نظاماً، وأنصاره جميعاً مقيدون في سجلات رسمية للحزب، ويشترط في العضو أن يدفع اشتراكاً سنوياً قدره أربع أنات، أي نحو قرشين بالعملة المصرية، يصرف من مجموعها على دورات المؤتمر السنوية، ونفقات فروعه في شتى أنحاء الهند، وقد زرت فرع المؤتمر في لكناو، فرأيت كيف

يكون التنظيم الحزبي الدقيق الذي تعززه الإحصائيات والرسوم البيانية التي يستدل منها على مدى الزيادة أو النقص في إقبال الشعب على تأييد الحزب عاماً بعد عام.

وليس للطائفية مكان في مبادئ حزب المؤتمر، وهو يؤكد هذا الاتجاه بتحريم عضويته على أي شخص يكون منتمياً إلى هيئة دينية، هندوكية كانت أو إسلامية؛ فالمؤتمر حزب وطني للوطن كله، لا هندوكي للهندوكيين ولا مسلم للمسلمين، بل هندي للهند، لا فرق بين طائفة وطائفة، ولا بين دين ودين، ولا بين جنس وجنس، وليس أقطع، ولا أروع في تصوير هذا المعنى مما قاله غاندي في مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٣، إذ قال مخاطباً رئيس إحدى اللجان:

"إنني لست إلا وكيلاً بسيطاً متواضعاً ينوب عن المؤتمر الوطني الهندي، وقد يكون من الخير أن تذكروا معنى المؤتمر وماهيته، فإنكم عندئذ ستشملونني بعطفكم؛ لأنني أدرك أن العبء الملقى على كتفي جد عظيم.

المؤتمر -إذا لم أكن مخطئاً- هو أقدم هيئة سياسية في الهند، وقد سلخ من العمر نحو خمسين سنة، عقد خلالها دوراته السنوية دون أي انقطاع وهو كما يدل عليه اسمه (وطني)، لا يمثل طائفة بعينها، ولا طبقة بعينها، ولا مصلحة بعينها، بل يضطلع بتمثيل جميع المصالح وجميع الطبقات الهندية، وإنه لمن أعظم البواعث على سروري أن أقرر أن فكرته طرأت لأول مرة على ذهن رجل إنجليزي، هو الآن أوكتافيان هيوم الذي نسميه

"أبا المؤتمر"، وقد اعتنق تلك الفكرة عظيمان من طائفة البارسيين هما فيروز شاه مهتاودادابای ناوروجي الذي أطلقت عليه الهند في زهو وسرور لقب "شيخ المؤتمر العظيم". وقد مثل في المؤتمر منذ نشأته المسلمون والمسيحيون وأنصاف الإنجليز من الهنود (أي الذين من أم إنجليزية وأب هندي). بل مثلت جميع الملل والنحل وشتى المذاهب في المؤتمر تمثيلاً وافياً إلى حد كبير. وكان المرحوم بدر الدين طباب يتكلم باسم المؤتمر، كما كان للمؤتمر رؤساء من المسلمين والبارسيين، وفي استطاعتي الآن أن أذكر على الأقل مسيحياً هندياً واحداً من أشهر أنصار المؤتمر هو كالي تشاران بانجري الذي لم أر في حياتي هندياً أخلص منه لوطنه.

وإنكم لتعلمون ولا شك أن المرحوم مولانا مُحَمَّد علي الذي نفتقده بيننا اليوم فلا نجده، كان رئيساً للمؤتمر. وتضم لجنتنا العاملة الآن أربعة أعضاء مسلمين من بين أعضائها الخمسة عشر، وقد وليت رئاسة المؤتمر أيضاً سيدات، كانت أولاهن الدكتورة أني بيزانت، وتلتها مسز ساروجيني نايدو التي هي الآن ضمن لجنتنا العاملة، وبهذا تجدوننا لا نفرق بين جنس وآخر، كما لا نفرق بين الطوائف والمذاهب.

وكما يعتقد المؤتمر أن وحدة المسلمين والهندوس، أي وحدة الطوائف جميعاً، أمر لابد منه لتحقيق الاستقلال، فكذلك يرى المؤتمر أن إزالة وصمة المنبوذين شرط لابد منه لإدراك الحرية الكاملة.

والمؤتمر يمثل في جوهره فوق كل شيء تلك الملايين الصامتة، الجائعة، المبعثرة طولاً وعرضاً في السبعمائة ألف قرية، سواء منهم أولئك الذين

يعيشون فيما يسمونه الهند البريطانية أو ما يسمونه الهند الهندية، فالمؤتمر إذن هيئة فلاحين في أساسه، وهو يزداد تمثيلاً لهم باطراد. وقد يدهشكم بل قد يدهش الأعضاء الهنود أنفسهم في هذه اللجنة الفرعية أن المؤتمر قد أوجد إلى اليوم، بواسطة هيئته المسماة "باتحاد غزالي جميع الهند" عملاً لنحو ٥٠.٠٠٠ امرأة في نحو ٢.٠٠٠ قرية، نصفهن تقريباً من المسلمات، وبينهن آلاف من الطبقة التي يسمونها طبقة المنبوذين".

هذا هو تعريف غاندي للمؤتمر وما له من صفة تمثيلية للهند والهنود أجمعين. وقد عني البانديت جواهر لآل نهرو في دورة كراتشي سنة ١٩٣١، باتخاذ قرارات صريحة واضحة لإعلان أهداف المؤتمر ومبادئه الوطنية والسياسية والاقتصادية في سبعة عشر بنداً، يهمنا الآن أن نسجل البند الأول منها، وهو بدوره مؤلف من أربع عشرة نقطة تتناول الحقوق والواجبات الأساسية، وهذا نصها:

١- لكل مواطن في الهند حق التعبير الحر عن رأيه، وحق الحرية في الاختلاط والاتصال بمن يشاء وحق الاجتماع السلمي، دون حمل السلاح، لأغراض لا تتعارض مع القوانين والآداب.

٢- لكل مواطن حق التمتع بحرية الاعتقاد، وحق اعتناق دينه وممارسته، في حدود النظام العام والآداب.

٣- يجب حماية ثقافة الأقليات ولغتها وكتبها في مختلف المناطق ذات اللغات المتعددة.

٤- جميع المواطنين متساوون أمام القانون، بغض النظر عن طبقاتهم أو

عقائدهم أو أجناسهم.

٥- لا يجوز أن تقام أية عقبة في وجه أي مواطن بسبب دينه أو طبقته الطائفية، أو عقيدته، أو جنسه (ذكراً كان أو أنثى)، وذلك فيما يتعلق بحقه في الوظائف العامة أو المناصب الرسمية أو مراتب الشرف، أو مزاولة أية مهنة أو حرفة.

٦- لجميع المواطنين حقوق وواجبات متساوية في الانتفاع بالآبار والخزانات والطرق والمدارس والمحلات العامة التي تتعهدها الدولة أو الهيئات المحلية، أو التي يتبرع بها الأشخاص للاستعمال العام.

٧- لكل مواطن الحق في أن يحمل السلاح في حدود اللوائح والقيود الخاصة بذلك.

٨- لا يجوز حرمان أحد من حريته ولا دخول مسكنه وأملاكه ولا مصادرتها إلا في حدود القانون.

٩- على الدولة أن تلتزم الحياد إزاء جميع الأديان.

١٠- يكون الانتخاب على أساس حق التصويت لجميع البالغين.

١١- تتعهد الدولة بأن يكون التعليم الابتدائي مجانيًا وإجبارياً.

١٢- لا يجوز للدولة الإنعام بأي رتب أو نياشين.

١٣- عقوبة الإعدام محظورة (وقد نقضت حكومة الهند الوطنية هذا المبدأ فأصدرت حكمها بإعدام قاتلي غاندي).

١٤- لكل مواطن حق التجول بأنحاء الهند، والبقاء أو الإقامة في أي

مكان منها، وحق الملكية ومزاولة أية مهنة أو حرفة يشاء، وأن يعامل على قدم المساواة مع الجميع في المحاكمة القضائية وفي التمتع بحماية القانون في جميع أنحاء الهند.

ويلي ذلك سائر البنود، وهي تتناول علاج الأعداء الثلاثة: الفقر والمرض والجهل، وهي بعينها الأعداء التي ابتليت بها مصر، ويظهر أنها "عوامل مشتركة" في كل بلد نكب بالاستعمار، ولا سيما الاستعمار البريطاني الذي تمليه وتوجهه السياسة التي دمغها غاندي في أحد تصريحاته بنعت "الشيطانية". وإذا كان المصريون أو بعضهم قد نسوا أفاعيل هذا الاستعمار في مصر، حيث يطيب لدعاة الاستعمار والمدافعين عنه أن يردوا أدواءنا الثلاثة الكبرى إلى عوامل أخرى تضافرت مع الإنجليز على نكبتنا بهذه الأدواء، فإن هناك دليلاً مادياً لا سبيل إلى التملص منه أو المكابرة في معناه ومغزاه، ونعني به سجل الاستعمار الإنجليزي في السودان وهو تاريخ خمسة وستين عاماً من الاستغلال والاستبداد والاستهتار بمصائر الملايين من البشر، فكانت نتيجة هذه المؤامرة الاستعمارية ما نشهد، ويشهد العالم، من تردي السودان في هوة سحيقة من الجهل والفقر والمرض، على نحو لا يماثله سوى مستوى الحياة في الهند.

وليس من العسير على أي متجول في ربوع الهند الفسيحة أن يدرك لأول وهلة أن "الفقر الأسود" هو أنضج ثمرة من ثمار "القرصنة" البريطانية في الهند، التي كان يسميها الإنجليز "ألمع جوهرة في التاج البريطاني"! وحسبنا تصويراً لهذا الفقر أن نذكر أن متوسط أجر الفلاح يعادل ثلاثة قروش في اليوم. وأن الأرض موزعة توزيعاً مختلاً قلما يوجد له مثيل إلا

حيث يوجد الاحتلال البريطاني؛ فهناك الثراء الفاحش بين الأقلية المترفة إلى جانب الفقر الفاضح بين الأغلبية الساحقة أو على الأصح المسحوقة. وحتى العدد المحدود الذي يتمتع بالملكية الصغيرة مرهق بالديون العقارية وقد قدرت هذه الديون تقديراً معتدلاً قبيل الحرب بنحو ٦٥٩.٠٠٠.٠٠٠ من الجنيهات، ويتقاضى المرابون فوائد على أموالهم بنسبة تتفاوت بين ٢٥ في المائة و ٢٠٠ في المائة!

وحيثما كان الفقر، كان إلى جانبه صنوه الأكبر وهو المرض، ويؤخذ من إحصاء رسمي بريطاني أن أكثر من أربعين في المائة من أهل الهند يعانون من نقص التغذية، وأن عشرين في المائة يتضورون جوعاً بالفعل! وتتراوح إصابات الملاريا في العام بين خمسين ومائة مليون إصابة. كما تبلغ إصابات السل الرئوي نحو مليونين في كل عام!

وجاء في تقرير رسمي آخر أن نسبة كبرى بين الفلاحين في إقليم البنغال تعيش على غذاء لا تستطيع أن تعيش عليه الفئران!

وليس عمال المصانع في الهند بأحسن حالاً من مواطنيهم الفلاحين، فالعامل في كلكتا (البنغال) أو بومباي يتقاضى في الأسبوع نحو عشرين قرشاً، ويعيش في غرفة خالية من الشمس والضوء والماء والاستعدادات الصحية، وقد يعيش كل عشرة أو عشرين في غرفة واحدة من هذه الغرف!

أما ثالثة الأثافي وهي الجهل، فيكفي لتصوير مدى تغلغله تحت ظل الاستعمار البريطاني أن نذكر أن عدد الأميين بين الهنود يتجاوز ٣١٥

مليون شخص من بين مجموع السكان الذين كان عددهم قبيل الحرب يناهز ٣٨٠ مليون نسمة على وجه التقريب.

أقف عند هذا الحد من الاستطراد الذي لم يكن منه بد لتعريف القارئ بالمؤتمر الوطني الهندي: كيف نشأ، وكيف نهض وكيف ناضل، وكيف رسم أهدافه التي ترمي إلى تخليص الهند من قبضة الغاصب الذي لا يرحم، وتخليص الهنود من براثن الفقر والجهل والمرض مضافاً إليها ذلك العدو الذي ابتليت به الهند أكثر من أي بلد آخر من بلاد العالم، وهو الصراع الطائفي الذي طالما نفخ الاستعمار في أتونه كلما هدأ، فلما حان يوم الجلاء الذي لم يكن منه بد، ضرب المستعمر الفاجر ضربته الماكرة الباترة، فترك الهند المسكينة في عيد حريتها تتخبط في دماء الضحايا الأبرياء، من الهندوك والمسلمين والسيخ على السواء، من جراء خدعة التقسيم، والأسلوب الذي جرت عليه السياسة البريطانية في تنفيذه.

دورة حافلة

وصلنا نكبور في صبيحة اليوم التالي بعد رحلة بالقطار من بومباي استغرقت نحو اثنتي عشرة ساعة. وقد حجز لنا ديوان بالقطار من دواوين الدرجة الأولى خلافاً لما اعتاده زعماء المؤتمر وأعضاؤه بغير استثناء، وفي مقدمتهم غاندي ونهرو، من السفر بالدرجة التي يسمونها بالمتوسطة، وهي أقل من الدرجة الثانية بقطاراتنا. وقد كان غاندي وسائر الزعماء يسافرون بأقل درجة في القطار، تمشياً مع خطتهم في النزول إلى أقل مستوى يعيش فيه الشعب، وهي الخطة التي جعلت غاندي يضرب المثل الفذ حين نزل

عن ثروته، وآلى على نفسه عهداً ظل يحفظه إلى أن مات، وهو أن يقنع من الزاد والملبس بأدنى حد يقدر عليه أفقر فقراء الهنود.

على أن تجربة السفر في القطار بأدنى الدرجات أخفقت بسبب تسابق المسافرين إلى تقديم أماكنهم وأغطيتهم وكل ما في استطاعتهم لتوفير أسباب الراحة لزعيمهم الراحل الذي بلغ عندهم مكان القداسة، بل ما فوق القداسة، حتى لقد أقام بعضهم معبداً لعبادته في حياته، فما كان منه إلا أن غضب لذلك، وأمر أصحاب المعبد بتحويله إلى مصنع للغزل والنسيج لا لعبادة بشر مثله!

ولهذا رضي غاندي وأتباعه من الزعماء وغيرهم أن يركبوا الدرجة المتوسطة في أسفارهم تفادياً لما يسببه سفرهم بالدرجة التي تحتها من متاعب لهم ولعامة المسافرين!

وصلنا نكبور فوجدنا على لحظة في استقبالنا جمعاً كبيراً من رجال حزب المؤتمر هندوكيين ومسلمين وسيخ. وفي مقدمتهم جواهر لال نهرو، رئيس وزارة الهند اليوم.

ولم نكد ننفض غبار السفر، ونترك أمتعتنا في (الاستراحة) الحكومية التي اختيرت لإقامتنا -وقد كانت وزارة الإقليم يومئذ كما هي اليوم إحدى وزارات حزب المؤتمر الفرعية- حتى ركبنا السيارات إلى ساحة المؤتمر في قرية جبلبور. وهناك أخذنا ننتقل بين أكواخ زعماء المؤتمر للتعارف وتبادل التحية. فكانت فرصة نادرة للتحدث في مكان واحد إلى أكبر مجموعة من زعماء الهند الذين يشار إليهم بأطراف البنان. فهذا

سردار باتل رئيس المؤتمر السابق وزعيم اليمين الشديد البأس (ونائب رئيس الوزراء الآن)، وهذا عبد الغفار خان زعيم الحدود الغربية المقاتل الذي يلقبونه "غاندي الحدود"، ويتواضع هو فيقول لنا وهو قائم عند باب كوخه بقامته المديدة المهيبة وجلبابه البسيط ورأسه العارية: "إنني لست سوى جندي بسيط في صفوف غاندي"!

وهذا زعيم المؤتمر الشيخ الوقور راجندرا برازاد صاحب السلطان بغير منازع في ولاية بيهار وعضو اللجنة التنفيذية العليا للمؤتمر منذ سنة ١٩٢٢، وأحد أقطاب المحاماة وأعلام الاقتصاد والتاريخ في الهند، وأحد المجاهدين الأفذاذ الذين ضحوا بالثروة والمنصب في سبيل الحركة الوطنية.

وهذا مولانا أبو الكلام آزاد أكبر أقطاب المؤتمر المسلمين الذين عاصروا حركة المؤتمر وناصروها وكافحوا التعصب الطائفي وعارضوا كل حركة لتمزيق وحدة الهند. وقد كان من أقطاب الجهاد الوطني حتى قبل بروز غاندي في معمعة الكفاح، وقد قبض عليه في سنة ١٩١٦ بتهمة التحريض على الثورة وقضى في سجنه أربع سنوات، فلم يكد يستنشق نسيم الحرية في سنة ١٩٢٠ حتى انضم إلى حركة العصيان المدني، وانتخب رئيساً لحزب المؤتمر سنة ١٩٢٣ (ثم أعيد انتخابه رئيساً خلال سنوات الحرب الأخيرة). وهو الآن مستشار المؤتمر الأول في شئون الإسلام والشرق العربي، وقد كان تشبث غاندي بوجوده إلى جانبه في كل مباحثاته مع الرابطة الإسلامية، سبباً من أبرز أسباب الفشل في تسوية الخلاف مع المغفور له السيد مُحَمَّد علي جنة زعيم الرابطة وحاكم باكستان العام السابق.

وهذه السيدة ساروجيني نايدو شاعرة الهند، أو "بلبل الهند" كما كان يسميها غاندي، وقد جمعت بين الشعر والوطنية ولاقت من ضروب المطاردة والاضطهاد ومصادرة الأموال والنفي والسجن ما لا يقبل به الصناديد الرجال. فاستحقت بجهادها وثقافتها ومواهبها الأدبية والخطابية النادرة مكاناً علياً بين زعماء الهند وانتخبت رئيسة للمؤتمر، وعهد إليها بأشق المهام السياسية والخطابية في كثير من دوراته. وقد كان من أسعد اللحظات في حياتي يوم رأيتها تخطب بالإنجليزية خطبة الختام في دورة المؤتمر التي شهدناها، فكان صوتها يجلجل مدوياً في نغمة أقرب إلى خشونة الرجال، وقد راحت ترتجل الكلام ارتجالاً وهي تتدفق كالبحر العجاج وتملأ بصوتها المدوي أرجاء الفضاء، فيسمعه أكثر من مائة ألف نسمة، رغم قلة اكتراثها بما ينبغي من توجيه الكلام في مكبرات الصوت!

وهكذا تتابعت أمام أعيننا هذه الصور وغيرها من صور العظمة والجهاد والتضحية وإنكار الذات ممثلة على أتمها في هؤلاء الزعماء المجاهدين الذين عرفنا بعضهم، وجهلنا أغلبهم، وإن كانت قد ضمتنا بهم منصة المؤتمر أيام انعقاده في تلك الدورة، ثم أتيح لنا بعد ذلك أن نتحدث إلى كثيرين منهم، وإلى خصومهم وأيضاً في مآدب التكريم وفي زياراتنا التي امتدت من بمباي إلى حدود الأفغان.

وقد صادفت زيارتنا للمؤتمر في ذلك العام -عام **١٩٣٩**- أزمة داخلية من أدق الأزمات التي عرفها المؤتمر الوطني في تاريخه الحافل بالمتاعب والأزمات، وكانت هذه الأزمة التي شهدناها وتتبعنا مراحلها من اللحظة الأولى لوصولنا، مثالاً رائعاً للحيوية الدافقة التي تنبض بها عروق

المؤتمر، كما كانت صورة مشرفة للعراك السياسي الذي يقوم داخل الحزب الواحد، لا في سبيل مقعد زائل من مقاعد الحكم أو النيابة، بل في سبيل الخدمة الوطنية التي يعتقد كلا الفريقين المتنازعين أنه أجدر بتوجيهها وأقدر على تحقيقها بوسائله وأساليبه في النضال.

كان محور الأزمة هو الترشيح لرئاسة حزب المؤتمر في الدورة الجديدة. وكان رئيس الدورة السابقة –دورة عام ١٩٣٨– هو الزعيم الوطني اليساري الشاب سوبهاس تشاندرا بوز، الذي كان يمثل الصورة المتطرفة للنزعة الاشتراكية التي زرع بذورها وتعهدها جواهر لال نهرو على أثر فشل العصيان المدني سنة ١٩٣٤، وكان بوز قائد العناصر المتطرفة التي ترى أن الوقت قد حان لمواجهة الإنجليز بإنذار نهائي للخروج من الهند فإذا لم يخرجوا خرجت إليهم الجماهير تناضلهم، ولو بحد السلاح حتى يجلوا عن البلاد.

ومن هنا استقر رأي بوز على ترشيح نفسه لرئاسة المؤتمر مرة أخرى، رغم اتفاق "القيادة العليا" ممثلة في غاندي وباتل ونهرو على ترشيح أحد رجال اليمين للرئاسة، وكانت النية قد انعقدت على ترشيح مولانا أبو الكلام آزاد ولكنه تنحى عن الترشيح، مزكياً عضواً بارزاً آخر من المؤتمر هو الزعيم الهندي سيتا رامايا، سكرتير المؤتمر إذ ذاك على ما أذكر.

وكانت معركة حامية الوطيس بين اليسار واليمين، بين الشدة واللين، بين التهور والتبصر، بين المضاء في الجهاد، والولاء لزعماء الجهاد الأقدمين.

وكان أغرب مظاهر هذه المعركة أن طرفيها الحقيقيين خاضا غمارها

عن بعد! غاندي، زعيم الأمة المقدس يديرها من صومعته التي أبى أن يفارقها ليحضر دورة المؤتمر رغم إلحاح الجميع عليه وفي مقدمتهم بوز، وبوز يديرها من فراش المرض في خيمته بأرض المؤتمر، وقد أصر على أن ينقل إلى جبلبور رغم اشتداد وطأة المرض عليه قائلاً إنه يؤثر أن يموت بين عشرات الألوف الذين حضروا من أطراف الهند للاجتماع في هذه البقعة، وإنه ليس من حقه كرئيس المؤتمر في دورته الماضية ومرشحه في دورته القادمة أن يتخلف عن هذه الجماهير، ولو كان مصاباً بذات الرئة!

وكان موقف نهرو من هذه المعركة بين زعيمه الجليل وزميله العليل آية من آيات النضال السياسي في أنبل معانيه. إذ كان يقسم وقته بين الإشراف على المعركة والخطابة في تأييد مرشح القيادة العليا للرئاسة، وبين السعي مهرولاً إلى خيمة منافسه سوبهاس بوز للاطمئنان على صحته، كصديق وزميل ومجاهد كريم.

وكان الفوز حليف المرشح اليساري الثائر العليل سوبهاس تشاندرا بوز!

ولم تكد تعلن هذه النتيجة حتى بادر اثنا عشر عضواً من أعضاء اللجنة العاملة (أي التنفيذية) الخمسة عشر إلى الاستقالة من عضوية اللجنة، وفي مقدمتهم سردار باتل ومولانا أبو الكلام والدكتور براساد، كما أصدر بانديت نهرو بياناً شديد اللهجة يعلن فيه استياءه واعتراضه على ما حدث.

ولم يلبث الفريقان لحسن الحظ أن دخلاً في مفاوضات عاجلة لرأب الصدع الذي أصاب بنيان المؤتمر في يوم افتتاحه، وانتهى الأمر بأن وافقت

اللجنة التحضيرية بأغلبية ٢١٠ ضد ١٣١ على اقتراح يتضمن الثقة التامة بغاندي، والولاء لزعامته، وعدم اعتبار ما حدث دليلاً على أي انحراف عن هذا الولاء.

وقد شفي بوز بعد بضعة أسابيع، وظل يواصل كفاحه السياسي رئيساً وعضواً في المؤتمر، حتى إذا اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية غادر الهند وألف الجيش الوطني الهندي من بعض مواطنيه المتطوعين الذين يئسوا من كفاح الاستعمار بالخطب والبيانات والجهاد السلبي، فحملوا السلاح مع القوات اليابانية، لا لكي يحاربوا في صفوف المحور، بل ليناضلوا في سبيل الهند، ولو اقتضى نضالهم النبيل أن يحالفوا شيطان المحور ليهزموا شيطان الشياطين وهو الاحتلال!

وقد مات سوبهاس بوز في حادث طائرة يابانية قبيل انتهاء الحرب، وسيظل اسمه بارزاً في أخلد صفحات الجهاد والتضحية والاستشهاد.

لم تكد نتيجة انتخابات الرئاسة تعلن حتى ألقى أحد أعضاء المؤتمر خطبة الرئيس القديم الجديد سوبهاس بوز، وفيها تحية لوفد مصر قوبلت بالتصفيق الشديد، وفيها كذلك تصوير واقعي دقيق لأهم الأحداث الداخلية والخارجية، وهو تصوير يتناول الحالة الدولية على وجه خاص بعبارات موجزة، ولكنها تكاد تكون منقولة عن صفحات الغيب، ولا سيما حين تناول الزعيم الشاب اتفاقية ميونيخ، وتسليم "الديمقراطيات الغربية" للنازية تسليماً ذليلاً، وتضافرها على تجاهل روسيا، وغير ذلك مما يحسن أن أنقل هنا ترجمته الحرفية. وقد استهله بالعبارة التالية مخاطباً رئيس الاجتماع

وسائر الحاضرين:

"أيها الرفيق الرئيس..

أخواتي وإخوتي أعضاء الوفود

أشكركم من أعماق قلبي على ما أوليتموني من شرف بإعادة انتخابي رئيساً للمؤتمر الوطني الهندي، كما أشكركم على الحفاوة الحارة القلبية التي استقبلتموني بها هنا في تريبوري. صحيح أنكم بناء على طلبي اضطررتم إلى الاستغناء عن بعض مظاهر الاحتفال الفخم التي جرت بها العادة في مثل هذه الأحوال[1] ولكني أحس بأن هذه الخطوة الاضطرارية لم تذهب بذرة واحدة من حرارة استقبالكم، وأرجو ألا يأسف أحد على اختصار المراسم في هذه المناسبة.

أيها الأصدقاء:

قبل أن أستطرد إلى موضوع آخر أود أن أردد صدى مشاعركم بإعلان ابتهاجنا بنجاح المهاتما غاندي في مهمته الخاصة بولاية راجكوت[2]

---

[1] إشارة إلى إلغاء "موكب الفيلة" الذي يقام عند انتخاب الرئيس الجديد في كل عام. وقد جرت التقاليد على أن يركب الرئيس الجديد فيلا، وتتبعه عشرات من الفيلة في احتفال بالغ الفخامة.

[2] راجكوت ولاية مستقلة تجاور بمباي. وقع فيها قبيل وصولنا خلاف شديد بين المهراجا وبين الشعب بسبب بعض الإصلاحات الدستورية التي كان المهراجا قد وعد بها. فلما نكث بوعده رغم تدخل غاندي في الأسر، قرر غاندي صياماً حتى الموت، أو يبر المهراجا بوعده وهو ما كان بالفعل. مما يشير إليه خطاب الرئيس.

ومما يذكر في هذه المناسبة أن والد غاندي كان رئيساً لوزارة راجكوت. ولهذا كان غاندي ينظر إلى مهراجا راجكوت نظرة الوالد إلى ولده.

وانتهاء صيامه تبعاً لذلك، وإن البلاد كلها لتشعر الآن بالسعادة وعظيم الارتياح.

إن هذا العام ينذر بأن يكون عاماً شاذاً من عدة وجوه؛ فانتخابات الرئاسة في هذه المرة لم تكن من الطراز التقليدي المحفوظ. وقد أعقبت الانتخاب تطورات بالغة الأهمية أدت إلى استقالة اثني عشر من الخمسة عشر عضواً في اللجنة العاملة، في مقدمتهم سردار فالاباي باتل ومولانا أ. ك آزاد والدكتور راجندرا برازاد. وهناك عضو كبير ممتاز آخر في اللجنة العاملة هو بانديت جواهر لال نهرو، لم يستقل رسمياً ولكنه أذاع بياناً جعل الجميع يعتقدون أنه استقال، كذلك وقد حدث قبيل انعقاد مؤتمر تريبوري هذا أن اضطرت حوادث راجكوت مهاتما غاندي إلى البدء في الصوم حتى الموت. ثم وصل رئيس المؤتمر (يعني نفسه) إلى تريبوري مريضاً، ولهذا يحق لخطاب الرئاسة في هذا العام أن يتماشى مع مقتضيات الحال فيخالف التقاليد في إسهابه وأطنابه.

وتعلمون أيها الأصدقاء أن البعثة الوفدية القادمة من مصر قد حلت بيننا في ضيافة المؤتمر الوطني الهندي. وإنكم لتشاركونني في تقديم أصدق الترحيب القلبي بأعضاء البعثة جميعاً. وإننا لسعداء غاية السعادة أن كان في استطاعتهم تلبية دعوتنا بالقدوم إلى الهند. ولا يؤسفنا سوى أن الظروف السياسية القاهرة في مصر لم تسمح لرئيس الوفد، مصطفى النحاس باشا، برئاسة هذه البعثة، على أن سروري قد تضاعف اليوم إذ كان لي شرف التعرف إلى رئيس البعثة وأعضائها الوفديين البارزين. وإني لأعود فأقدم لهم باسم أبناء وطني أصدق عبارات الترحيب القلبي".

وبعد هذه التحية الكريمة التي قوبلت بالتصفيق الحاد والهتافات من عشرات الألوف، استطرد الرئيس قائلاً:

"لقد وقعت منذ اجتماعنا في هاريبورا في فبراير سنة ١٩٣٨، أحداث هامة متعددة في المحيط الدولي. وأهمها ميثاق ميونيخ الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٣٨، وهو ينطوي على تسليم ذليل لألمانيا النازية من جانب دولتي الغرب فرنسا وبريطانيا. وقد كانت نتيجة ذلك القضاء على فرنسا باعتبارها الدولة الكبرى في أوروبا وانتقال الزمام إلى يد ألمانيا دون أن تنطلق رصاصة واحدة! ويظهر أن تدهور الحكومة الجمهورية في إسبانيا وانهيارها التدريجي قد زاد في قوة إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية ورفع من هيبتهما، فتآمرت معهما دولتا الديمقراطية المزعومة فرنسا وبريطانيا، على استبعاد روسيا السوفيتية من حساب السياسة الأوروبية في الوقت الحاضر، ولكن إلى متى يظل ذلك في حيز الإمكان؟! على أن الذي لا شك فيه هو أن التطورات الدولية الأخيرة في أوروبا وآسيا على السواء، قد نالت كثيراً من قوة الاستعمارين البريطاني والفرنسي وهيبتهما.

أما سياستنا الداخلية، فإن اعتلال صحتي يجعلني أجتزئ عن الإفاضة فيها بالإشارة إلى بضع مسائل هامة، وأبادر أولاً فأعبر تعبيراً واضحاً لا يقبل الشك أو التأويل عن شعور يخالجني منذ حين، بأن الوقت قد حان لكي نثير مسألة الاستقلال (سواراج)، ونتقدم بمطلبنا الوطني إلى الحكومة البريطانية في صورة إنذار نهائي. لقد مضى وانقضى وقت المواقف السلبية والانتظار حتى نتجرع "المشروع الاتحادي". ولم تعد المسألة متى نرغم على تجرع هذا المشروع، بل ماذا ينبغي أن نصنع إذا وضع المشروع الاتحادي

على الرف بضع سنوات حتى يستقر السلم في أوروبا. إن الذي لا شك فيه أنه إذا استقر السلام في أوروبا، سواء بميثاق رباعي أو بغير ذلك من الوسائل، تذرعت بريطانيا بالقوة وانتهجت سياسة استعمارية شديدة. وليس ما يبدو الآن من علامات الرغبة في استرضاء العرب ضد اليهود في فلسطين إلا نتيجة شعورها بالضعف في المحيط الدولي. ولهذا أرى من واجبنا أن نتقدم بمطلبنا الوطني إلى الحكومة البريطانية في قالب إنذار نهائي، مع تحديد أجل معين للرد عليه. فإذا لم نتلق رداً خلال الأجل المضروب أو تلقينا رداً غير مرض، كان علينا أن نلجأ إلى ما لدينا من وسائل لانتزاع مطلبنا الوطني، والوسائل التي لدينا الآن هي العصيان المدني الإجماعي (ساتيا جراها). والحكومة البريطانية اليوم ليست في موقف يسمح بمواجهة كفاح ضخم كالعصيان المدني العام إلى أجل بعيد.

ويحز في نفسي أن أجد في المؤتمر أناساً يبلغ بهم التشاؤم حد الذهاب إلى أن الوقت لم يحن بعد لمبادأة الاستعمار البريطاني بهجوم واسع النطاق، ولكني حين أعرض الموقف عرضاً واقعياً محضاً لا أجد أدنى مبرر لهذا التشاؤم. فإن اضطلاع المؤتمر بأزمة الحكم في ولايات ثمان قد رفع من مكانة هيئتنا الوطنية وشد أزرها وسار بالحركة الشعبية في الهند البريطانية[١] شوطاً بعيداً إلى الأمام. وأخيراً وليس آخراً، هناك نهضة لم يسبق لها مثيل في

(١) تمييزاً لها عن "الهند الهندية" وهي التي كان يحكمها المهراجات والراجات والحكام المسلمون.

أما الهند البريطانية فهي إحدى عشرة ولاية تضم أقاليم أسام والبنغال وبيهار وأوريسا وبمباي والأقاليم الوسطى والأقاليم المتحدة والبنجاب والسند والحدود الشمالية الغربية، وهذا بالطبع قبل التقسيم وظهور الباكستان وانضمام الولايات كلها للهند.

الولايات الهندية. فأية لحظة أنسب من هذه في تاريخنا الوطني للزحف النهائي نحو الاستقلال (سواراج) ولا سيما أن الموقف الدولي يلائمنا؟! إنني إذ أتكلم كرجل واقعي هادئ أستطيع أن أقول إن كل عناصر الموقف الحاضر وحقائقه الواقعة تلائم مصلحتنا إلى الحد الذي يبرر أقصى درجات التفاؤل. فإذا نحن قضينا على خلافاتنا، ووجدنا جميع كفاياتنا، وحشدنا للجهاد الوطني كل قوتنا لما استطاع الاستعمار البريطاني أن يصمد لهجمتنا! فهل يتوفر لدينا من بعد النظر السياسي ما يكفل لنا استغلال موقفنا الملائم الحالي إلى أقصى حدود الاستغلال، أو نضيع هذه الفرصة النادرة في حياة أي شعب من الشعوب؟".

وبعد استطراد يسير لفت الرئيس فيه أنظار المجتمعين إلى واجب المؤتمر نحو شعوب الولايات في الهند الهندية، عاد إلى دعوته للجهاد فقال:

"لقد أشرت فيما سبق إلى ما ينبغي علينا من القيام بزحف نهائي نحو الاستقلال، وهذا يقتضي أن نعد للجهاد عدته. وأول ما ينبغي في هذا الصدد هو أن نتخذ الخطوات لكي نقضي في غير رحمة على أي عنصر من عناصر الفساد أو الضعف تسرب إلى صفوفنا لأسباب مرجعها في الغالب بريق الحكم الجذاب، وعلينا بعد ذلك أن نعمل في تعاون وثيق مع جميع الهيئات التي تحارب الاستعمار في البلاد، ولا سيما حركة الفلاحين (كيسان) وحركة اتحاد العمال، فلابد لجميع العناصر الراديكالية من التعاون وتنسيق العمل فيما بينها، ولابد من توحيد جهود المنظمات المعادية للاستعمار حتى تتضافر كلها في توجيه الهجوم الحاسم على الاستعمار البريطاني".

واختتم الرئيس المتطرف خطبته، أو على الأصح رسالته بهذه العبارة التي قوبلت بعواصف من التصفيق والاستحسان:

"أيها الأصدقاء إن جو المؤتمر اليوم ملبد بالغيوم، وقد بدت للعيان بوادر الانقسام والخلاف، ولهذا يشعر كثير من أصدقائنا بالحزن والقنوط.

ولكني مؤمن بوطنية مواطني واثق من أننا قبل أن ينقضي زمن طويل سنذلل الصعاب القائمة، ونعيد الوحدة إلى صفوفنا، وقد طرأ موقف يشبه هذا الموقف في مؤتمر "جويا" سنة ١٩٢٢، عندما أنشأ داشباندوداس وطيب الذكر بانديت موتلال نهرو حزب الاستقلال، فلنستلهم في أزمتنا الحاضرة روح المأسوف عليه جورا والطيب الذكر موتلالجي[١] وغيرهما من أبناء الهند العظام، وإني لأرجو مخلصاً من المهاتما غاندي، الذي ما زال معنا مرشداً وهادياً ومعيناً للأمة أن يساعد المؤتمر على الخلاص من أزمته الحاضرة".

هذه خطبة الرئاسة التي ألقيت على مسامعنا باسم الزعيم الشاب الثائر شوباس بوز، وقد أعدها بنفسه رغم اشتداد وطأة المرض عليه، وفيها من آيات الوطنية، والجرأة، وبعد النظر وسعة الأفق ما يدل على مبلغ الخسارة التي أصابت الهند بفقده في حادث طائرة يابانية في فترة نضاله الدموي، ضد الاستعمار البريطاني في الحرب الماضية.

---

[١] تضاف "جي" على الاسم الأول في الهند دلالة على التعظيم، فهم يقولون عادة "غانديجي" أو "مهاتماجي" أو "جواهر لآل جي" إلخ إلخ.

تحية نهرو

وقد ألقى البانديت نهرو على إثر خطبة الافتتاح كلمة هذا نصها:

"سيداتي سادتي:

بين ظهرانيكم اليوم بعثة الوفد المصري التي شرفت الهند لحضور هذا المؤتمر إجابة للدعوة التي وجهت إليها من رئيس هذا المؤتمر، وقد حضرت الآن تحمل إليكم رسالة إخلاص ومحبة وصداقة من الشعب المصري الكريم وزعيمه الأمين مصطفى النحاس باشا. فأنا أرحب بها اليوم أجمل ترحيب وأحييها أعظم تحية، وأقدر رسالة الإخلاص هذه حق قدرها. وأنا أرجو من صميم قلبي أن تعود هذه البعثة وهي تحمل إلى الشعب المصري الكريم وإلى زعيمة الوفي الأمين مصطفى النحاس باشا نفس هذه الرسالة ونفس هذا الود، ونفس هذا الحب وهذا العطف من شقيقتها الهند.

ولقد كان من دواعي الأسف الشديد في الوقت الذي تتلهف فيه الهند بأسرها لرؤية زعيم مصر العظيم أن تحدث موانع وأن تقع عوائق تمنع من تحقيق رغبة الهند برؤيته ووجوده بين ظهرانينا الآن في هذا المؤتمر وعلى رأس هذه البعثة، ولكن عسى أن يتحقق هذا الأمل في المستقبل وأن تحظى الدورة المقبلة لهذا المؤتمر بشرف حضور هذا الزعيم الجليل".

خطاب وفد مصر

وعلى إثر ذلك، ألقى المرحوم بسيوني بك باللغة العربية خطاباً باسم الوفد، ثم تلاه الأستاذ محمود أبو الفتح بترجمة إنجليزية. وفيما يلي نصه:

"حضرة الرئيس..

حضرات الأعضاء..

سيداتي، سادتي..

أقدم لحضراتكم بالنيابة عن زملائي وبالأصالة عن نفسي أعضاء بعثة المودة والصداقة التي أنابها الوفد أصدق شكرنا على دعوتكم الكريمة وحفاوتكم البالغة، كما نقدم لكم تحية صادرة من سويداء القلوب سداها الإخلاص ولحمتها المحبة والولاء والوفاء، وقد كان ولا يزال الاشتراك في مؤتمركم العظيم أعز أماني زعيم الأمة المصرية مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد وأعضائه جميعاً لو لم تحل ظروف طارئة دون حضور الرئيس بشخصه، ولا يعادل سرور زملائي وسروري بانتدابنا لهذه المهمة النبيلة إلا إحساسنا بالشرف العظيم إذ ننوب عن الوفد الذي يمثل الشعب المصري بأكمله في إبلاغ الشعب الهندي المجيد أسمى عواطف الود والإخاء وأصدق التحيات والتمنيات.

سيداتي، سادتي..

لقد أثارت فينا هذه الرحلة المباركة شعوراً عميقاً تبعثه أوجه الشبه المتعددة التي بين البلدين والتي ترجع بنا إلى الماضي البعيد، يجمع الشرق بين بلدينا، والشرق مهبط الوحي ومصدر الفلسفة والحكمة ومبعث الأديان التي تحث على التآلف وبث روح المحبة في القلوب، وتحكيم المثل العليا كي يعيش الناس متصافين وتتوفر أسباب الخير والسعادة لهم جميعاً. ولم يقتصر مجد البلدين التالد على ما لديهم من هذه الكنوز النفيسة بل

ورثا ميراثاً رائعاً من حضارة عمرانية ترجع إلى فجر التاريخ، ومدنية كانت زاهرة رائعة حين كان سائر العالم يتخبط في ظلام الجهالة والتأخر.

وشاءت الأقدار أن تتنكر لبلدينا فاشتركا في مصاب واحد وذاقا كأساً واحدة فاتفقت مشاعرهما وتماثل إحساسهما، وكان طبيعياً أن تتماثل نهضتهما وتتشابه قيادتهما وتتقارب فيهما وسائل الدفاع والنضال.

لقد بدأت النهضة المصرية الحديثة سنة ١٩١٨ بزعامة المغفور له سعد زغلول، وكذلك قامت النهضة الهندية الحديثة بزعامة المهاتما غاندي.

تحمل المهاتما وزملاؤه المخلصون، من هندوكيين ومسلمين وغيرهم صنوفاً من الاضطهاد والتنكيل، فقابلوها بصدر رحب وإمعان في الجهاد وبذل في التضحية كما تحملها قادة النهضة في مصر وكانوا مثل إخوانهم الهنود ذوي عزيمة لا تكل وقناة لا تلين.

اتفق الشعبان في المبادئ كما اتفقا في الوسائل، فقد شيدت نهضتهما على صرح الاتحاد بين عناصر الأمة المختلفة.

نادى بذلك المغفور له سعد زغلول باشا في مصر، فلبى المصريون على اختلاف مللهم ونحلهم نداءه وهبوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص والتفوا حول وفدهم وزعامتهم التي حمل رايتها سعد حتى مات في ميدان الجهاد، فحملها من بعده مصطفى النحاس وسار بها من نصر إلى نصر، ومن فوز إلى فوز، فقد كان من أثر توحيد الصفوف والالتفاف حول الوفد والثبات على مبادئه أن وصلت مصر إلى عقد معاهدة استقلال وصداقة مع بريطانيا العظمى وعقد معاهدة إلغاء الامتيازات مع الدول الأجنبية،

وتبوأت مصر كدولة مستقلة مقعدها بين الدول في عصبة الأمم. وكذلك في الهند أسس المهاتما غاندي نهضة على التآلف بين العناصر المختلفة.

سيداتي، سادتي..

ما أحرى بلدينا بالاتصال الدائم وما أحرى أن تكون هذه البعثة فاتحة خير وبركة تتوالى بعدها البعثات بين البلدين كل عام حتى تتقوى الروابط وتقرب ما بينهما من علم وثقافة، وإنه لمن دواعي سرور الوفد وزعيمه الجليل أن نرى مندوبين عن مؤتمركم الموقر يحضرون المؤتمر الوفدي الذي سيعقد في أواخر شهر أبريل القادم.

وما أحرى أن تتسع دائرة الاتصال إلى أن تشمل الأمم الشرقية جميعها. ولعل من بواكير ذلك الاتجاه اجتماع ممثلي الشعوب العربية في مؤتمر فلسطين تحوطهم بقية الشعوب الشرقية بعطفها وتأييدها.

إن مصر أيها السادة، التي تربطها بالدولة البريطانية معاهدة الصداقة والتحالف، لتجد واجباً عليها ووفاء منها لهذه المحالفة ألا تتردد في الأهمية بحليفتها أن تستجيب إلى نداء الوطنية الصادر من قلوب مئات الملايين من أبناء هذه البلاد، فنقيم علاقاتها بها على أسس وطيدة من الصداقة الخالصة المتبادلة والتعاون الحر.

سيداتي سادتي

من أشد ما يبهرنا هذا الحفل الرائع، وهذه الجموع الهائلة آتية من بقاع الهند المختلفة المترامية، تمثل مئات الملايين من جميع الأديان والمذاهب، يعملون جميعاً على تحقيق أمنية الهند الكبرى التي يحنو عليها قلب كل

هندي، بل قلب كل مصري، بل قلوب الشرقيين جميعاً".

قرار المؤتمر

وقد وقع خطاب الوفد المصري في نفوس رجال المؤتمر وقعاً طيباً، وكان يقاطع بالتصفيق الحاد من عشرات الألوف الحاشدة، فلما عقد المؤتمر اجتماعه العام في مساء يوم ١١ مارس عرضت عليه لجنة الموضوعات القرار التالي فأقره بالإجماع:

"يقدم المؤتمر ترحيبه الودي إلى بعثة المودة والصداقة التي أوفدها الوفد المصري بالنيابة عن جميع أرجاء مصر. وتعد هذه الزيارة رمزاً للتضامن في الحركات الخاصة بحرية مصر والهند، ويبعث المؤتمر بتحياته القلبية إلى شعب مصر، وبأخلص تمنياته للنجاح التام في إحراز الحرية الكاملة. والمؤتمر موقن بأن تعاون شعبي مصر والهند سيزداد توثقاً على الدوام، وسيكون أكثر نفعاً في خدمة السلم والحرية في العالم".

برقية من غاندي

وقبل أن نغادر تريبوري إلى الله آباد، مسقط رأس نهرو، تلبية لدعوته تلقينا من المهاتما غاندي برقية يقول فيها:

"سررت كثيراً ببرقيتكم الودية، وأرجو أن يكون قد تحقق لكم بعض ما كنتم تتوقعونه. سأصل إلى دلهي في ١٥ مارس. فأرجو أن أقابلكم هناك".

(غاندي)

في حضرة غاندي

وفي جو الحفاوة القلبية التي سعدنا بها في تريبوري غادرنا المدينة إلى الله آباد، حيث نزلنا ضيوفا على البانديت نهرو، وقد رافقنا في القطار ومعه كريمته ومولانا أبو الكلام، فلما بلغنا مدينة الله آباد وجدنا من آيات الحماسة الوطنية، والتنظيم الحزبي، كما يتمثل في لجان المؤتمر، أمثلة جديرة بالإعجاب والتقدير. ولا غرو فإن الله آباد ليست مسقط رأس نهرو فحسب، ولكنها أيضاً مقر المركز العام لحزب المؤتمر، وهو يقع في دار شامخة وهبها والد نهرو، الزعيم الكبير موتلال نهرو لتكون مقراً للحزب.

وفي جانب من هذه الدار أقيم مستشفى للفقراء سمي باسم السيدة المجاهدة النبيلة كمالا نهرو زوجة جواهر لال نهرو تخليداً لذكراها، وتمجيداً لتضحياتها المأثورة وجهودها في إبان الحركة الوطنية، إذ كانت تنزل إلى الشوارع بنفسها لإسعاف جرحى المظاهرات الذين كان الإنجليز يرفضون نقلهم إلى مستشفيات الحكومة، فكانوا ينقلون إلى دار نهرو حيث يظفرون بالعناية والمواساة والنجدة من يدي كمالا نهرو وزميلاتها النبيلات. فلما توفيت قبيل الحرب الأخيرة اكتتب الأهلون بمبالغ كبيرة وأقاموا مستشفى كبيراً لعلاج الفقراء أطلقوا عليه اسم كمالا نهرو، ووضع غاندي حجر الأساس فيه.

وفي الله آباد أقيم بمناسبة حضورنا اجتماع عام عقد في حديقة واسعة الأرجاء وحضره أكثر من عشرين ألف شخص.

وقد جلسنا، ومعنا البانديت نهرو فوق منصة عالية، وكان ظهورنا

إيذانا بعاصفة مؤثرة من الهتافات لمصر والوفد. ثم نهض البنديت نهرو فألقى خطابين بالهندستانية والإنجليزية تحدث فيهما بإسهاب عن الحركة الوطنية في مصر، وقيادة سعد زغلول الذي قال إن الهند كلها كانت تعرفه وتقتفي خطاه، وانتقال زعامة الوفد من بعده إلى النحاس باشا، وأفاض نهرو في الإشادة بوطنية النحاس باشا، وتضحياته وخدماته لبلاده، ثم تكلم عن قوة الوفد في مصر وأهمية تبادل البعثات بين الوفد والمؤتمر، وضرورة التعاون بين مصر والهند وتبادل المعلومات عن أحوال البلدين مباشرة دون وساطة الشركات الأجنبية.

وأعقب ذلك خطاب حماسي –باللغة العربية– ألقاه المرحوم بسيوني بك وكان مداره التنديد بالخلاف بين عنصري الهند الكبيرين، ودعوتهما إلى توحيد الصفوف بعبارات مؤثرة، كان أثرها ينعكس في التصفيق الشديد الذي قوبلت به معظم فقرات الخطاب.

وتكلم الأستاذ أبو الفتح بالإنجليزية فضرب مثلاً للاتحاد بما حدث في مصر بين المسلمين والأقباط، واختتم خطابه بتحية (ابن الله آباد) البار الزعيم الخالد الذكر موتيلال نهرو. فتعالت الهتافات له، ولمصر وزعماء مصر.

وفي مساء اليوم نفسه سافرنا بالقطار إلى لكناو وعاصمة المقاطعات المتحدة، فوصلنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثاني، وإذا في استقبالنا السيد بانديت زوج شقيقة نهرو (وقد توفي أثناء الحرب الأخيرة) وكان محامياً معروفاً، وسكرتيراً عاماً للجنة المؤتمر العامة في المقاطعات المتحدة،

كما وجدنا في استقبالنا عدداً كبيراً من أعضاء المؤتمر، وبعد أن استرحنا بفندق كارلتون ذهبنا إلى دار البرلمان لزيارة مجلس النواب (ويسمونه الجمعية التشريعية) وقد حضرنا جانباً من الجلسة، وكان مما لفت أنظارنا وجود سيدات بين الأعضاء، وعددهن إحدى عشرة سيدة بينهن سيدتان مسلمتان.

ومن طريف ما حدث يومئذ –وكيف أنساه؟– أن أحد سعاة المجلس اقترب مني أثناء جلوسنا في الشرفة وهمس في أذني بأن نائبة في المجلس تدعوني لكي تتحدث إليّ، فذهبت معه، وإذا به يصحبني إلى قاعة الاستقبال وإذا سيدة تلبس الحجاب السميك الذي يسمونه "البردة" وهو يحجب الوجه كله ولا يترك سوى ثقبين تنظر السيدة من خلالهما إلى محدثها.

ولم تصافحني السيدة النائبة –وهي إحدى النائبتين المسلمتين– ولكنها بادرتني بإيماءة من رأسها قائلة:

– لقد دعوتك باعتبارك أصغر أعضاء البعثة القادمة من مصر.

فقلت:

– هذا شرف عظيم يا سيدتي.

فقالت:

– هل التعليم منتشر بين المصريات؟

قلت:

– إنه في تقدم كبير يا سيدتي.

قالت:

– وهل تخرج المرأة المصرية إلى الطرقات؟ لقد بلغني أنها تركت الحجاب وأصبحت سافرة!

ثم أضافت بلهجة ملؤها الجزع:

– هل هذا صحيح؟!

قلت:

– صحيح يا سيدتي، فنحن لا نعرف الحجاب الذي تتمسكون به هنا، ومع ذلك فأرجو أن تطمئني إلى أن الإسلام بخير في مصر.

وكأنما أحست بخيبة أمل شديدة، فاكتفت بأن حملتني التحية إلى بقية أعضاء البعثة راجية لمصر الخير والتوفيق، دون أن تخفي عجبها لتنازل مصر عن الحجاب!

وفي الساعة الثالثة زرنا دار الشعبة العامة للمؤتمر في لكناو فرسخ لدينا مبلغ حرص المؤتمر على تنظيم لجانه وشعبه في جميع أنحاء البلاد على أساس محكم دقيق.

وفي الساعة الخامسة أقامت لنا وزيرة الصحة مسز بانديت شقيقة نهرو، وسفيرة الهند في الولايات المتحدة الآن، حفلة شاي كبيرة في حديقة دارها الأنيقة حضرها أكبر الشخصيات من مختلف الأحزاب والهيئات.

وعدنا من لكناو إلى دلهي فتجددت حفلات التكريم، ومن بينها حفلة

شاي كبرى أقامها زعيم نواب المؤتمر في الجمعية التشريعية المركزية المرحوم بولاباي ديساي جمعت بين كبار رجال المؤتمر والشخصيات البارزة من المسلمين والهندوس وكبار الموظفين الإنجليز والهنود.

في حضرة غاندي

وفي يوم ١٨ مارس، في حديقة قصر بيرلا (بيرلا هاوس) بنيودلهي، حيث قتل غاندي وهو يتأهب للصلاة، متجهاً إلى الله بكل جوارحه، في ذلك اليوم وفي ذلك المكان أسعدني الحظ بفترة خالدة من العمر قضيتها مع غاندي، وتحدثت إليه، واستمعت إليه، وملأت نفسي من فيض قدسيته وروحانينه.

إن ذكرى هذا الاجتماع ما زالت حية ماثلة بتفاصيلها في ذهني حتى الآن، كما لو كانت قد حدثت بالأمس القريب.

فها نحن أولاء، في صحبة البنديت نهرو –خليفه غاندي– والدكتور الأنصاري، الذي يمثل أسرة إسلامية عريقة متفانية في الإخلاص لغاندي وزعامته. ها نحن أولاء قد وصلنا إلى قصر بيرلا قبيل الظهر بعد جولة خاطفة في بعض معالم دلهي الجديدة.

ولقد وصلنا قبل الموعد بدقائق معدودات، ولابد أن نحظى بالمثول في حضرة الزعيم القديس في موعدنا، لا نتقدم دقيقة ولا نتأخر. إن مواعيد مقابلاته تحدد تحديداً دقيقاً قبل حلولها بأيام. لا تكبراً ولا غرورا، لكن تنظيماً للسيل الدافق من طلبات الاجتماع بالزعيم، وهي طلبات تتلقاها سكرتيرته من زعماء المؤتمر وكبار الأعيان، وكبار الوافدين من الخارج،

والصحفيين الأجانب والهنود وصغار المواطنين الذين يقطعون ألوف الأميال أملاً في الحظوة بكلمة، أو نصيحة أو ابتسامة، أو لمحة من غاندي يستمدون منها البركة والسعادة مدى الحياة.

هذا إلى جانب واجباته اليومية من أداء الصلاة، وإلقاء الدروس الدينية، ومطالعة الرسائل، وكتابة المقالات لجريدته التي كان يسميها "الهند الفتاة" ثم جعل اسمها هاريجان" أي أبناء الله، وهو الاسم الذي أطلقه على المنبوذين. وهناك مشاوراته الدائمة مع قادة الحزب، ومشروعاته الاجتماعية التي لا تنتهي ولا تقف عند حد، لتعليم الشعب وإزالة الفوارق بين طبقاته، ونشر الصناعات الضرورية كالغزل والنسيج، لسد حاجاته الأولية، ورفع مستوى معيشته، وتمكينه من الاستغناء عن واردات إنجلترا وغيرها من البلاد الأجنبية.

هذه بعض أعباء الزعيم السياسي، والروحي والاجتماعي الذي كان يجتاز يومئذ عامه السبعين، والذي استقبل بعثتنا المصرية يوم وصولها ببرقية إلى وزير داخلية بومباي، ينيبه عنه في الترحيب بنا، ويعرب عن أمله الوطيد في أن تكون زيارتنا فاتحة خير لتوثيق عرى الروابط التي لا تنفصم.

بين مصر والهند

ها نحن أولاء نُدعى إلى التشرف بلقاء الزعيم، لقد هممنا أن نجتاز أعتاب قصر بيرلا الذي لابد أن تكون أفخم قاعاته قد خصصت للمقابلات، ولكنهم يتقدموننا إلى طريق الحديقة، فلا نكاد نمضي خطوات حتى تجد الزعيم الشيخ واقفاً. يتلقانا بابتسامة نحس أنها كافية وحدها

للتعبير عن أكرم معاني الترحيب والغبطة والشوق إلى رؤيتنا.

ونظرت من حولي فلم أجد سوى سرير بسيط من "الجريد" وعدد محدود جداً من المقاعد الخشبية البسيطة، دُعينا إلى الجلوس على بعضها، واضطجع غاندي على سريره، مشيراً إلى رئيس البعثة محمود بسيوني بك – رحمة الله عليه– أن يجلس معه على جانب من السرير، بينما جلس الباقون على الأرض يحيطون بالسرير في بساطة لا عهد للقادة والزعماء بها في القرن العشرين.

وبادر نهرو إلى إخراج عدسته المصورة التي يحملها في عنقه دائماً كلما خرج إلى رحلة أو زيارة، فما كاد يبدأ في التقاط صورنا في حضرة الزعيم أو "الأب" كما يسمونه، حتى ضحك غاندي ملء شدقيه وقال بالإنجليزية مداعباً في حنان ظاهر: "لقد عاودته نوبة التصوير من جديد!".

وجلسنا إليه فبادرنا قائلاً:

"أكرر لكم ما سبق إرساله إليكم ببرقيتي، وهو أني آمل أن يكون تبادل الزيارات فيما بيننا سبباً في توثيق عرى الاتحاد التي لا تفصم بين مصر والهند، وأقول هذا لا كمجرد رغبة يقصد منها المجاملة، ولكنها رغبة حقيقية صادرة عن شعور خالص. إنكم تمثلون أمة إسلامية ونحن لدينا عشرات الملايين من المسلمين، وكثيرون منهم يمثلون أعلى درجات الثقافة، فالاتصال بيننا سيساعدنا على حل مشاكلنا. وليس هذا لأن البلدين شرقيان فحسب، بل لأنهما أيضاً في حاجة حقيقية إلى التعاون. وهذا الاتصال المباشر أساسي إلى أقصى حد".

واستطرد غاندي فتحدث إلينا حديثاً ملؤه الإعجاب بمصر وحركتها الوطنية، التي قال إنه يتابعها باهتمام شديد من عهد المغفور له سعد زغلول باشا. وقد سألنا عن رفعة النحاس باشا، مبدياً أسفه لعدم تمكنه من حضور دورة المؤتمر بنفسه. ثم قال:

– كم عمر النحاس باشا الآن؟

فقلت: ثمانية وخمسون عاماً.

فأجاب: إنه ما زال شاباً!

وفي ختام الحديث توجه إلينا بنصيحة شدد فيها كثيراً، وهي أن نزور حيدر آباد، أكبر ولاية في الهند على رأسها حاكم مسلم.

وخرجنا كالمأخوذين بسحر هذا الزعيم، النحيل، الضئيل الذي استطاع بضعفه وزهده، واستهانته بالسجن، والاعتداء، والتعذيب، وإيمانه الهائل بقوة الحق التي لا تقهر، أن يحطم كبرياء الاستعمار البريطاني الجبار ويقوض أركانه من الأساس!

وقد لقي غاندي مصرعه برصاص هندوكي متعصب ينتمي إلى حزب "هندو مهاسابها". فما هو هذا الحزب؟ لقد كان البانديت نهرو يشرح لي ذات يوم مبادئ المؤتمر الوطني فكان مما قاله: "إن حزب المؤتمر لا يعترف بالنزعات الطائفية في جهاده، ولهذا يقضي نظامه بألا يقبل في عضويته أحداً من المنتمين إلى أية جمعية طائفية إسلامية كانت أو هندوكية. ولهذا أيضاً نرفض أن نقبل في صفوفنا أعضاء الحزب الهندوكي الذي يسمى "بالهندو مهاسابها" لا لأنهم خونة للوطن، وأعداء لاستقلال الهند، بل لأنهم

أنشأوا حزبهم على أساس طائفي محض باعتبارهم هندوكين، أما المؤتمر فهو هندي ينشد الحرية لجميع الهنود، وقد كان طبيعياً أن يثور المتعصبون في الهند، إزاء موقف غاندي الأخير وتهديده بالصيام حتى الموت إذا لم يوضع حد للصراع الدموي ضد المسلمي. فشاء القدر إلا أن يدفع غاندي حياته ثمناً لرسالة التسامح التي بشر بها وقف حياته عليها!

أليس هو القائل عن دينه:

"إن ديني يزودني بكل ما احتاج إليه لنضوجي الداخلي، لأنه يعلمني الصلاة. ولكني أرجو أيضاً أن يستكمل كل إنسان غيري نضوج نفسه من طريق ديانته؛ فيزداد المسيحي مسيحية، ويزداد المسلم إسلاماً. إنني مقتنع بأن الله يوماً من الأيام سيسألنا عن قيمتنا، وعما نفعل، لا عن الاسم الذي نطلقه على وجودنا أو فعالنا"!

بل أليس هو القائل يوم أحاط به نفر من الهنود المتهوسين عقب ميثاقه مع اللورد إيروين، وهموا بالاعتداء عليه لاتهامه "بخيانة وطنه!" إذ قبل ذلك الميثاق: "إنكم تقولون إنني خنت الهند. وأنا لن أشكو إذا ضربتموني. وليس لي من حرس، فالله وحده يرعاني. وإذا كان بعض الناس يعتقد أنني أحمق أو مجنون لأنني أحب أعدائي، فليعلموا أن هذا هو أساس عملي كله وعقيدتي طول حياتي، وهأنذا لا أملك سلاحاً إزاءكم سوى الحب"!

ومع ذلك، فإن غاندي لم يكن جباناً في يوم من أيام حياته، بل إنه قال في إبان دعوته لعدم العنف: "حيثما يتعين الاختيار بين الجبن والعنف،

فإنني أنصح بالعنف، وخير لي ألف مرة أن أخاطر باتخاذ خطة العنف من أن أخاطر بروح الرجولة في الشعب، وخير لي أن أدعو الهند إلى حمل السلاح دفاعاً عن شرفها، من أن أراها تصبح، عن جبن ومذلة، فريسة عاجزة لعارها وضياع شرفها. ولكني أعتقد أن عدم العنف يفوق وسيلة العنف تفوقاً ليس له نهاية"!

هذه لمحات وامضة عن الرجل الذي فقدته الهند، والشرق، والعالم أجمع، ففقدت الإنسانية فيه مثلاً أعلى في الزعامة والقداسة، والتسامح، والزهد والتضحية حتى بالروح!

خاتمة المطاف

وكانت خاتمة المطاف بعد زيارة دلهي رحلتنا إلى لاهور، عاصمة البنجاب، حيث قضينا يوماً حافلاً بالزيارات والمآدب، واضطررنا إلى الاعتذار عن عدم استطاعتنا قبول عدة دعوات، واستأنفنا السفر بعد العشاء بالقطار إلى بشاور عاصمة إقليم الولايات الشمالية الغربية، تلبية لدعوة الزعيم المجاهد الكبير خان عبد الغفار خان، الملقب بغاندي الحدود (وهو الآن مع الأسف يقضي فترة من السجن على يد حكومة الباكستان، بعد محاكمة من أعجب المحاكمات السياسية).

ولم أشهد، ولا أظنني سأشهد في حياتي، موكباً وطنياً حاشداً كموكب البعثة المصرية من محطة بشاور إلى دار رئيس الوزراء الدكتور خان صاحب شقيق عبد الغفار خان (وهو أيضاً من المسجونين السياسيين الآن!).

ويكفي أن أقول إن البعثة طافت بعد الغداء أرجاء المدينة في موكب من السيارات، فكان يحافظ على النظام أكثر من مائة ألف متطوع من الذين يسمون "خدام الله" بملابسهم الحمراء، فضلاً عن عشرات الألوف من الأهلين الذين اكتظت بهم الشوارع حتى اضطرت السيارات للتوقف عن المسير غير مرة، ووصل الموكب بعد نحو ساعتين إلى حديقة واسعة احتشد فيها نحو ثمانين ألفاً، جلسوا إلى الأرض، وخطب فيهم خان عبد الغفار خان باللغة الأفغانية، ثم ترجمت خطبته إلى العربية، وألقى بعدها عدد من الخطب والقصائد، رد عليها المرحوم الأستاذ بسيوني بك –باللغة العربية– شاكراً للحاضرين حفاوتهم، منوها بفضل السيد جمال الدين الأفغاني الذي تخرج على يديه الشيخ مُحَمَّد عبده وسعد زغلول مؤسس

الوفد الذي خلفه مصطفى النحاس، فكانت هذه الأسماء وحدها كافية لإطلاق عواصف داوية من التصفيق والهتاف، ولا سيما بعد ترجمة "الخطبة إلى اللغة الأفغانية".

وتناولنا طعام العشاء على مائدة رئيس الوزراء، وقضينا الليلة في ضيافته ثم زرنا الجمعية التشريعية في اليوم التالي، وتناولنا الشاي في مضيق خيبر على حدود الأفغان، ثم غادرنا بشاور في المساء عائدين إلى دلهي ومنها إلى بمباي، حيث ركبنا الباخرة إلى مصر، فكان وداعنا هناك واستقبالنا هنا من أصدق الشواهد على مدى نجاح البعثة في مهمتها.

من نهرو إلى النحاس

وقد سلمت البعثة إلى رفعة النحاس باشا رسالة خاصة من البانديت جواهر لال نهرو. هذه ترجمتها:

"لقد كان لنا عظيم الفخر بأن نرحب في الهند بكبار أعضاء الهيئة الوفدية الذين قدموا إلى هنا ليمثلوا هيئتهم الوطنية العظيمة ويمثلوا الشعب المصري في الوقت ذاته. وقد رحبنا بهم بصفتهم ضيوفنا الكرام، ولكن ترحيبنا كان ينطوي على معنى أكبر من هذا هو أنهم جاءوا إلينا رموزاً لروح الوطنية والحرية من مصر. وقد وجدنا، نحن الذين في الهند والذين تشبعنا بهذه الروح وأوجدنا جهادنا ضد روح الاستعمار والسيطرة للوصول إلى حرية شعبنا، أننا متناسقون أتم تناسق مع روح كهذه موجودة في مصر، فهناك أمور كثيرة مشتركة بين شعبينا، إذ كانت الصلات بينهما وثيقة منذ فجر التاريخ وكان بينهما حتى في العصور القديمة –الماضية– تبادل في

الآراء والثقافة والتجارة، كما كانت بينهما في العصور الحديثة من التاريخ صلات الجهاد المشترك في سبيل الحرية، ومقاومة الاستعمار في كلا البلدين، ثم ضعفت الروابط التي كانت تربط بين شعبينا في الماضي زمناً طويلاً. ولكن المصلحة والغرض المشتركين هما اللذان جمعا بيننا من جديد. وإني لصادق الأمل في أن تؤدي هذه الزيارة إلى توثيق هذه الروابط وتنشئ حلقة اتصال لا تنفصم بين الشعبين المصري والهندي.

إن الحرية تُسحق اليوم في العالم، وقد أخدت أنوارها تخبو في أماكن كثيرة فتحل محلها الظلمات والمفاسد، لذلك أصبح من الضروري للذين يتمسكون بالمثل العليا للحرية والديمقراطية أن يتضامنوا ويجمعوا صفوفهم لصد الخطر المشترك الذي يتهددهم.

وإنه لتجري في العالم الآن تغييرات ثورية عظيمة، ومما لا شك فيه أن الهند ستحقق استقلالها، وأنها ستقوم بفضل ما لديها من موارد واسعة وأيد عاملة موفورة بدور هام في شئون العالم، فنحن مع إيماننا باستقلالنا الوطني نؤمن كذلك بالتعاون العالمي بين الأمم ضماناً للسلم والحرية والنظام في العالم.

إن لكل من مصر والهند مشاكلها الخاصة، وإذا كان كلاهما يستطيع أن يتعلم من الآخر فمن الواجب أن ننهض كل بمشاكله على انفراد. فليس لأحدنا أن يتدخل في شئون الآخر الداخلية، ولكنا نستطيع في المهام الكثيرة الكبيرة المشتركة بيننا أن نتعاون في سبيل مصلحة كل منا. وأن نعمل لما فيه الصالح الدولي الأكبر.

وأولى الخطوات في هذا الطريق هي أن يعرف كل منا الآخر. وأن يقف كل منا على حركات الآخر الوطنية. وأرجو أن تكون نتيجة زيارة هذه البعثة المصرية وضع الأسس لهذه المعرفة المتبادلة، ولتبادل المعلومات فيما بين البلدين.

لقد لبثت بعثة الوفد بيننا فترة قصيرة كانت شاقة مضنية؛ فالهند بلاد واسعة الأرجاء. وقد سافر أعضاء البعثة فيها مسافات شاسعة ولم يتمتعوا إلا بالقليل من الراحة، ومع هذا فإنهم لم يروا إلا جزءاً يسيراً من هذه البلاد. وإني آسف لأنهم لم يتمكنوا من زيارة جامعات عليكرة والله آباد وبنارس، ومدينة كلكتا العظيمة، وكذلك جميع أنحاء جنوب الهند وشرقها.

ولقد كان مواطنونا في أشد اللهفة إلى الترحيب بهم في جميع هذه الأنحاء، ولكنهم أسفوا وخاب رجاؤهم لأن ضيق الوقت قد حال دون هذه الأمنية. ومع قصر المدة التي قضاها أعضاء البعثة الوفدية في الهند فإني لأرجو أن يحملوا معهم عند عودتهم صورة -ولو غير كاملة- عن الهند اليوم وما فيها من حيوية ودوافع جديدة تحفزها إلى الأمام من كل ناحية ستكون لديهم فكرة عن حركتنا وكيف تقوم على جماهير الشعب، وكيف أنها كحركة حية تعكس كالمرآة وجوه الصراع على المبادئ والمثل العليا وغيرها مما يشغل عقل الهند، فبعد فترة طويلة من الحياة الكامنة الراكدة أومأت تلك القوى التاريخية المحركة إلى شعبنا فأخذ يسير معها خطوة فأخرى أملاً في تحقيق الدور الذي قدره له التاريخ، وهو التعاون إلى أقصى الحدود مع جميع الشعوب التي تتعشق الحرية، ولا سيما شعوب الشرق.

إنني أرجو أن يحمل أعضاء البعثة إلى بلادهم أجمل الذكريات وأبقاها عن زيارتهم للهند. أما هم فإنهم يتركون هنا أينما حلوا آيات خالدة للصداقة والتآخي بين الشعبين. وسنعتز طويلاً بهذه الذكريات والآيات. كذلك أرجو أن يكون في استطاعتنا تبادل الزيارات في أغلب الأحيان لكي تبقى الصلة متجددة على الدوام. وآمل بصفة خاصة أن يتمكن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري من زيارتنا في مستقبل الأيام.

وإني لأشعر برغبة قوية في أن يوفد المؤتمر الوطني مندوبين عنه لحضور مؤتمر الوفد الذي سيجتمع في أبريل، فإذا تيسر ذلك بحال من الأحوال فلابد أن يوفد المندوبون، ولكن من العسير أن نجزم بذلك نظراً للمشاكل الدولية والوطنية الخطيرة التي تواجهنا الآن.

وأرجو من أعضاء البعثة أن يحملوا إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وهيئة الوفد والشعب المصري ثقتنا التامة وإيماننا بالإخاء والتضامن بين الشعبين لتحقيق المثل العليا التي جعلناها جميعاً نصب أعيننا".

الله آباد في ٢٧ مارس سنة ١٩٣٩

جواهر لال نهرو

الهند مرة أخرى

بعد الاستقلال

بعد عشر سنوات

وتقدِّرون فتضحك الأقدار..

لقد ضحكت مع الأقدار حين وجدت نفسي في أواخر فبراير من العام الماضي ١٩٤٩ أتهيأ لرحلة أخرى إلى الهند، وفي شهر مارس نفسه، أي بعد عشر سنوات كاملة من رحلتي الأولى إليها في شهر مارس سنة ١٩٣٩.

لقد كنت قبل بضعة أسابيع أتهيأ لرحلة قصيرة إلى إيطاليا، فاضطررت حينذاك إلى تجديد جواز السفر، ولما طلب إليَّ أن أسجل أسماء البلاد التي قد أزورها بمقتضى هذا الجواز أحصيت نحو عشرة بلاد على سبيل الاحتياط. ولكن بلداً واحداً كان يتردد على خاطري فأستبعده على الفور من الإحصاء المطلوب لأنني لم أكن أتصور أن أعود إليه بعد أن زرته مرة وحسبت أنني بلغت من دراسة أحواله ومشاهدة أطرافه حداً يصرفني عن زيارته مرة أخرى، وقضاء فترة من الوقت فيه أنا أحوج إلى قضائها في دراسة أحوال بلد سواه.

وهكذا أغفلت الهند من قائمة البلاد التي سجلتها في جواز سفري المجدد، فلم تنقضِ أسابيع معدودة على تجديده حتى وجدتني مدعواً مرة أخرى لزيارة الهند في رحلة صحفية دعت إليها حكومة الهند المستقلة ستة من الصحفيين المصريين. فاضطررت إلى إجراءات جديدة أستكمل بها ما تعمدت حذفه لأنني قدرت، وشاءت الأقدار غير ما قدرت.

كانت رحلتي الأولى كما أسلفت رحلة سياسية، وكانت الثانية رحلة

صحفية.

كانت الأولى بدعوة من حزب المؤتمر الوطني الهندي الذي كان يخوض معركة الاستقلال والحرية ضد الاستعمار البريطاني. أما الثانية فكانت بدعوة من المؤتمر أيضاً، ولكن بعد أن كسب معركة الحرية والاستقلال وتولى رجاله منصب الحكم وحملوا أمانته ومضوا من فورهم قدماً يخوضون معركة أشق وأضنى، هي معركة الحكم الصالح لخير الملايين لا لمصلحة فرد واحد أو بضعة أفراد.

وكانت رحلتنا الأولى من طريق البحر على باخرة إنجليزية، قطعت بنا المسافة في تسعة أيام، بينما اتخذنا الجو مطيتنا في الرحلة الثانية على طائرة ضخمة هندية، قطعت بنا المسافة بين القاهرة إلى بمباي مرة واحدة في تسع ساعات ونصف ساعة.

وإذا كان السفر بالباخرة يتيح للمسافر متعة البحر الهادئة، فإن السفر بالطائرة يتيح للمرء أن يدرك المعجزة الهائلة التي حققها الطيران في العصر الحديث؛ وهي معجزة سخرت بالمسافات، وبالزمن وكادت تجعل بساط سليمان حقيقة علمية واقعة، لا تشبيهاً مجازياً تجري به الأقلام، وتحار في تصوره الأفهام!

الهند الجديدة

قال لي صديقي القديم ديجرلال ديساي وزير الهند في سويسرا، الذي شاءت المصادفة السعيدة أن ألقاه في مطار فاروق، وأقضي معه الرحلة الأخيرة في الذهاب والعودة، قال لي وهو يذكرني بزيارتي السابقة التي نزلت

فيها ضيفاً عليه وعلى والده في بمباي:

- سيتاح لك هذه المرة أن تقارن وأن تلمس ما طرأ على بلادنا من تطورات بعد عشر سنوات. قلت:

- هذا حق، ولا شك أن التغيير سيكون ظاهراً وملموساً.

فقال:

- وإنك لتلمسه بالفعل الآن، إذ تسافر على ظهر طائرة هندية، يملكها هندي كبير، هو المليونير المشهور تاتا، ويقودها طيارون من الهنود ويشرف على راحة ركابها مضيفات هنديات ولم يكن لهذا كله أثر عندما ذهبت إلى الهند في رحلتك الأول، أي منذ عشر سنوات!

وهذا حق، فما أبعد الفرق بين الهند التي رأيتها إذ ذاك وبين الهند التي رأيتها في المرة الأخيرة بعد عشر سنوات!

لقد كان يخيل إليّ أنني أزور هذه البلاد للمرة الأولى، حتى المكان الذي نزلنا فيه أخيراً بنيودلهي، ويسمونه دار الدستور لم يكن له وجود في مارس سنة ١٩٣٩.

إنه الآن دار الضيافة التي ينزل فيها أعضاء الجمعية التشريعية المركزية الذين يمثلون مختلف الولايات الهندية. فترى أعضاء البرلمان الهندي رجالاً ونساء مع زوجاتهم أو أزواجهن أحياناً ينزلون في هذه الدار ويتناولون الطعام في قاعتها الفسيحة حتى إذا انتهت أعمالهم البرلمانية عادوا إلى ولاياتهم. حتى تدعوهم واجباتهم مرة أخرى للعودة إلى هذه الثكنات، التي

كانت تسكنها القوات الأمريكية أثناء الحرب!

وقد اختفت من الهند في العامين الماضيين وصمتان لا شك أن الفضل الأول في اختفائهما يرجع إلى غاندي الذي وقف ماله وجهاده على محاربتهما بوسائله السلمية التي زلزلت الجبال؛ الوصمة الأولى هي الاحتلال البريطاني، والثانية هي وصمة المنبوذين!

أما الإنجليز فقد اختفوا تماماً من أعمال الإدارة. فأصبح الوزراء جميعاً من الهنود، والوظائف الكبرى كلها بأيدي الهنود، ولم يبق في الهند المتحدة -عدا الباكستان- سوى مائتي موظف بريطاني لا حول لهم ولا قوة ينتظرون التصفية الحاسمة بعد فترة وجيزة.

حتى العلاقة الواهية أو الشكلية التي تربط الهنود بالإنجليز الآن، باعتبارهم أعضاء في "الكومنولث" أو مجموعة الشعوب البريطانية، أعلن الانديت نهرو أنها ستنفصم بعد بضعة أشهر، وأن الهند ستصبح جمهورية مستقرة لا صلة لها بإنجلترا سوى الصلة العادية التي تربط بين الهند وسائر بلدان العالم. وقد حضرت الليدي مونتباتن وكريمتها جلسة المجلس التشريعي التي أدلى فيها نهرو بهذا التصريح وهي قرينة اللورد مونتباتن، ابن عم ملك الإنجليز، الذي تمت على يديه تصفية الإمبراطورية تفادياً لكارثة أعظم كانت تهدد قوات الاحتلال في الهند لو لم تبادر بريطانيا بنقل السلطة إلى الهنود في ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧.

وقد قابلنا الليدي مونتباتن في الهند وهي محبوبة جداً لدى الزعماء ولدى الشعب على السواء ولا تكاد تنزل في نيودلهي إلا في ضيافة

البانديت نهرو رئيس الوزراء. ومع ذلك فإنه لم يجد بأساً من إلقاء تصريحه الخطير عن قطع علاقة الهند ببريطانيا على مسمع منها، بل إنه أضاف إلى ذلك أن الهند ترفض في الوقت نفسه أن تربطها بأية دولة من الدول –بما فيها بريطانيا– أية محالفة من أي نوع كانت، لأن هذه المحالفات تحمل في طياتها التزامات حربية وغير حربية ليس من مصلحة الهند أن تتقيد بها!

ولم يكد حزب المؤتمر يتولى مقاليد السلطة في أنحاء الهند منذ عام ونصف عام حتى استهل الحكم الوطني بإلغاء وصمة المنبوذين التي لم تكن تقل عاراً وشناراً في جبين الهند عن وصمة الاحتلال، بل هي تفوقه بكثير فإن الاحتلال من عمل الأجنبي الغاصب، بينما التعصب ضد طبقة من الأمة كهذه تعد بالملايين عمل تقع مسئوليته كلها على أهل البلاد. وقد تحرر المنبوذون الآن تحرراً كاملاً من القيود الرهيبة التي ظلوا يرسفون فيها قروناً طويلة تحت نير التقاليد الهندوكية البالية. فلم يعد محرماً عليهم أن يزاولوا عملاً سوى الكنس ونقل القمامة ودفن الموتى، ولم يعد محرماً عليهم أن يأكلوا أو يشربوا مع غيرهم من طعام أو إناء واحد، ولم يعد مفروضاً عليهم إذا أرادوا أن يطلبوا الماء من إحدى الآبار أن ينتظروا حتى يأتي أحد الهندوكيين غير المنبوذين فيملأ لهم الوعاء خوفاً من أن يدنسوا البئر لو ملأوا هم منها!

لقد زال هذا كله الآن. وأصبح للمنبوذين من الحقوق وعليهم من الواجبات ما للجميع وعليهم. وقد تناولنا الشاي مع وزيرة الصحة في دلهي وهي السيدة المثقفة راجكوماري (أي الآنسة) أمريت كور –وهي مسيحية قاربت الستين من عمرها– وكان بين الحاضرين عدد من كبار

الهندوكيين وسيدة من طبقة المنبوذين جلسوا جميعاً على مائدة واحدة بلا تمييز ولا أدنى تفريق.

وهكذا فقدت الهند غاندي، وتخلصت من الإنجليز والمنبوذين، أو بعبارة أخرى خسرت القائد وكسبت المعركة.

صور وعبر

كان أمتع جزء في برنامج رحلتنا للهند زيارة كشمير التي لا نكاد نعرف عنها في مصر إلا أنها بلد "الشال" الكشميري الفاخر، وهي اليوم مدار نزاع محتدم حول مصيرها الأخير. هل تنضم إلى الباكستان –وأغلبية سكانها من المسلمين– أو تؤثر الانضمام إلى الهند، تمشياً مع التيار الوطني الذي خاض غماره المسلمون منذ سنين تحت لواء حزب المؤتمر الهندي، وعلى رأس أولئك المسلمين الشيخ عبد الله رئيس وزراء كشمير الآن؟

لندع حديث السياسة مؤقتاً وسنعود إليه في مجال المقارنة بين مشكلتي حيدر آباد ذات الأغلبية الهندوكية والحاكم المسلم وكشمير ذات الأغلبية المسلمة والحاكم الهندوكي، وكم للاستعمار البريطاني في الهند من فنون وشئون.

كان الجليد يكسو ربى الجبال في كشمير ويغري بالنشاط والإقبال على مزاولة رياضة الشتاء المحبوبة؛ رياضة الانزلاق التي قضينا فيها يوماً من أجمل الأيام. ومع ذلك فقد كنا قبل أيام معدودة نعاني ويلات الحر اللافح في كلكتا ونمسح العرق اللزج المتصبب من جباهنا وأيدينا في مدراس، ونهرب من الغرف المخصصة لنومنا في (وردة) –معقل الحركة الوطنية

وموطنها الأصيل– ونستلقي على الأسرة في فضاء مكشوف، بين الغرف طول الليل. وهكذا يجمع جو الهند بين الحر القائظ والبرد القارس، لتقلبه وسرعة انتقاله من حال إلى حال، بل لاتساع رقعة هذه البلاد التي تكاد مساحتها تعادل مساحة أوروبا كلها، مع استثناء روسيا وحدها.

وكما يتفاوت جو الهند هذا التفاوت الواضح، تتفاوت بين أهلها أنواع الأديان واللغات والعادات تفاوتاً لا مثيل له في أي بلد آخر من بلاد العالم أجمع. ويدل الإحصاء الرسمي الذي أجري سنة ١٩٤١، على أن تعدادها طبقاً لاختلاف أديانها هو:

٢٣٩.٤٢٤.٤٠٠ هندوكي و٤٢.٧٣١.٧٤١ مسلماً و٥.٥٩٢.٤١٩ مسيحياً و٤.١١٤.٧٤١ من السيخ و١١٠.٣٢٥ بارسياً (من عبدة النار).

وقد زاد عدد المسلمين وغيرهم بعد ذلك التعداد زيادة كبيرة، حتى أصبح عدد المسلمين في الهند وحدها (أي بدون الباكستان) يقدر بنحو ٤٢ مليوناً يواجهون الآن مأزقاً لا مخرج لهم منه إلا بالصبر والحكمة واستعادة الثقة التي زعزعتها حوادث التقسيم الفاجعة ومآسيه التي تعيد إلى الأذهان أشع الأهوال التي رواها التاريخ عن فاجعة الأندلس.

وقد يكون مما يبعث بصيصاً من الأمل في نجاة أولئك المسلمين من محنتهم أن عدداً غير قليل من كبراء المسلمين يشغلون في الهند اليوم عدداً من أرفع مناصب الدولة. فهناك من الوزراء في الحكومة المركزية بدلهي وزيران هما: مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف، والسيد رفيع أحمد

قدواي وزير المواصلات، وهناك اثنان آخران يتوليان منصب الحاكم العام في ولايتين هنديتين وهما: السير أكبر حيدري حاكم أسام، والسنيد عساف علي أول سفير للهند في أمريكا، وشقيق السيد أصفر فيظي سفير الهند في مصر الآن وهو الآن حاكم أوريسا، ومن الوزراء المسلمين في الولايات الهندية الآن مولانا عبد المطلب مازومدار ومولانا مُحَمَّد طياب الله في أسام، والدكتور سيد محمود والسيد عبد القيوم أنصاري في بيهار، ومن السفراء المسلمين للهند السيد أصفر فيظي في مصر، والسيد علي زهير في إيران، والسيد طيابجي في بلجيكا، والدكتور رؤوف في بورما وميرزا رشيد علي بك في الهند الفرنسية، والسيد عبد المجيد خان في جدة والسيد فايز في الفلبين. وما زال رئيس المحكمة العليا في بمباي حتى الآن من المسلمين وهو السيد شاجلا.

وعلى عاتق هؤلاء المسلمين البارزين يقع الآن أكبر نصيب في المسئولية عن إخوانهم ومواطنيهم مسلمي الهند الذين تبينوا أن دولة الباكستان لا تستطيع أن تتسع لإيوائهم، وقد كادت تضيق بنيف وخمسين مليوناً من المسلمين.

وإذا كان المسلمون في الهند متحدين في الدين وإن اختلفوا في المذهب بين الشيعية والسنية، فإن الخلاف بين طبقات الهندوكيين أكبر وأضخم. وقد شرح لي أحدهم طبيعة الخلاف بين آلهتهم فقال إنهم في الحقيقة موحدون، وإنهم لا يشركون بالله أحداً، ولكنهم يعبدون الله في صور متعددة! فهناك طائفة تسميه "براهما" أي الخالق، وهناك طائفة تسميه "فشنو" أي الحافظ، وهناك طائفة تسميه "شيفا" أي المهلك المدمر. ولهم

في تفسير هذا كله مذاهب متعددة ومعقدة.

وهناك بعد هذه الطبقات طبقة المنبوذين أو الأنجاس الذين وقف غاندي أعظم جانب من جهاده ونشاطه على انتشالهم من وهدة الاحتقار والمهانة، فأمر بأن تفتح لهم معابد الهندوكيين، وأن يباح لهم مزاولة أي عمل يشاؤون جنباً إلى جنب مع الهندوكيين والمسلمين والمسيحيين. وقد تم النصر لغاندي في هذا السبيل، وأصبح كثيرون من طبقة المنبوذين الملغاة يشغلون مناصب الوزارة وغيرها من مناصب الدولة كبيرها وصغيرها، وفي مقدمتهم الدكتور أمبيدكار وزير العدل في الوزارة المركزية الآن.

وقد أتيح لنا أثناء تجولنا في الهند من دلهي إلى كلكتا إلى مدراس إلى حيدر آباد إلى كشمير أن نتحدث أحاديث صريحة إلى إخواننا المسلمين. فلاحظنا عليهم حالة من القلق والتخوف لا شك فيها، ولكننا وجدنا بينهم في الوقت نفسه إجماعاً على أن من حسن حظ المسلمين والهنود جميعاً أن على رأس الدولة رجلين عرف كلاهما بالجهاد السافر الصريح في سبيل القضاء على الطائفية وهما: راجا جو بالاتشاري حاكم الهند العام، والبنديت جواهر لال نهرو رئيس الوزارة المركزية وخليفة غاندي في زعامة الهند غير منازع، لا سيما بعد أن خلا أمامه جو المنافسة على الزعامة بمصرع الزعيم الثائر شوپاس تشاندرا بوز الذي ألف جيشاً هندياً وطنياً حارب به الإنجليز مستعيناً باليابانيين، وتوغل أكثر من مائة ميل داخل الهند، فلما وضعت الحرب أوزارها أراد الإنجليز أن يلطخوا سمعة الرجل حتى بعد مماته فقبضوا على عدد من قواده، وقدموهم للمحاكمة العسكرية بتهمة الخيانة الوطنية في سنة ١٩٤٦، وشاء حسن الطالع أن يكون أول

فوج قدم للمحاكمة مؤلفاً من ثلاثة من قواد الجيش الوطني أحدهم مسلم –وقد قابلته في دلهي وتحدثت إليه حديثاً كشف فيه عن كثير من الأسرار– والآخر هندوكي، والثالث من السيخ، وهنا برزت عظمة زعماء الهند ورجولتهم على أتمها حين ألفوا هيئة للدفاع على رأسها المحامي الأشهر والسياسي الفحل بولاباي ديساي –وقد توفي منذ عام– وكان من أعضائها البنديت نهرو الذي نسي خصومته السياسية لشوباس بوز وأسرع إلى رداء المحاماة ينفض عنه غبار ثلاثين سنة، ولم يكتف بذلك، بل راح يطوف أنحاء الهند ويخطب في الجماهير الحاشدة أينما ذهب منوهاً بوطنية بوز، مشيداً بجهاده الدائم في سبيل تحرير الهند، مؤكداً أنه لم يكن هو ولا قواده خونة أو خارجين على الوطن، بل كانوا يكافحون للوطن بكل سلاح بجدونه، ولهذا حاربوا في صفوف اليابانيين لا حباً فيهم، ولكن أملاً في الخلاص من شر الاستعمار البريطاني!

لقد بذل الإنجليز كل ما أوتوا من مكر ودهاء حتى أثاروا بين الهندوكيين والمسلمين شعور العداء والكراهية، برغم صلات الألفة والاحترام والتعاطف التي طالما جمعت بينهم، وهي صلات لا أستطيع أن أذكر رمزاً لها أنبل من ذلك المعبد الهندوكي الذي يلتصق جداره بجدار مسجد ومقام يتبرك به المسلمون والهندوكيون جميعاً لولية معروفة في بلدة تبعد نحو مائتي ميل جنوب مدينة مدراس، وقد جرى الهندوكيون في ذلك المعبد على تفادي عزف الموسيقى لصلاتهم في أوقات الصلاة عند إخوانهم المسلمين!

وقد تصدى غاندي للسياسة الاستعمارية في حربها ضد وحدة الهند،

فكان حريصاً على توكيد معنى التسامح الديني في كل خطوة يخطوها وكل صلاة يقيمها؛ فكان كل صاحب دين يؤدي فرائض دينه في صومعة غاندي على مسمع وعلى مشهد من الحاضرين على اختلاف أديانهم، وما زال أتباع غاندي يقيمون الصلاة في صومعته بمدينة ورده كما كانت تقام في حياته، وقد حضرنا هذه الصلاة ليلتين متواليتين إحداهما في إصلاحية النساء التي كان يبيت فيها أثناء صيامه، وقد تلوت فيها سورة الفاتحة وسورة الإخلاص بدعوة من كبار الهندوكيين الموجودين، وفي الصلاة الثانية دعينا أيضاً للاشتراك مع جمهور المصلين الذين جلسوا في مستطيل كبير أمام كوخ غاندي البسيط الذي ما زال باقياً كما تركه حتى الآن، وقد لفت نظري حين بدأت الصلاة في غسق الليل أن أحدهم أمسك بطبل أو على الأصح رق (بلا جلاجل) ثم رفعه وأخذ يدق عليه دقات بطيئة رتيبة رهيبة ويتلو معها كلاماً لم أتبينه، ثم تلا الرجل نفسه -وهو هندوكي- سورتي الفاتحة والإخلاص مع التجويد المؤثر دون أن يخطئ في لفظ أو حركة واحدة! ثم تليت الصلاة الهندوكية المعتادة، وحضرت للاشتراك في الترنيم بصفة خاصة في تلك الليلة سبابلا كشمي (أم كلثوم الهند)، وهي فتاة ناضرة الشباب، ذهبية الحنجرة، جمعت ثروة ضخمة من الغناء، وأصبحت تطوف الآن لتقيم حفلات تتبرع بثلاثة أرباع إيرادها لأعمال الخير. وقد اختتمت أناشيدها الدينية في تلك الليلة بترتيل اسم الله أي "رام" بالهندوكية على تصفيق الأكف وترديد الحاضرين رجالاً ونساء "رام، رام، رام رام".

وبعد انتهاء الصلاة روى لي أحد الذين حضروا الصلاة قصة الطبلة

والنشيد الذي افتتحت به الصلاة، فقال إن راهباً يابانياً كان قد انضم إلى صومعة غاندي قبل الحرب، وظل يواظب على الصلاة ويشترك فيها بالطبلة والنشيد الديني الذي سمعناه، فلما نشبت الحرب اعتقل الإنجليز الراهب الياباني العجوز أسوة بجميع اليابانيين الذين كانوا يقيمون في الهند إذ ذاك. فأمر غاندي بأن تعتبر صلاة الراهب الياباني جزءاً من صلاة مريديه كل يوم كما لو كان صاحبها موجوداً، وكما كان يؤديها بنفسه. وما زال طبل الراهب ونشيده من ذلك اليوم جزءاً لا يتجزأ من الصلاة أمام صومعة غاندي تنفيذاً لأمره وتمشياً مع حرصه على احترام جميع الأديان. وقد دخلت الصومعة في النهار فوجدت على الحائط سورة الفاتحة مكتوبة باللغة العربية ومعلقة في أبرز مكان.

أما كفاح غاندي –أو بعبارة أخرى كفاح الهند اليوم– في سبيل انتشال الشعب من وهدة الفقر والجهل والمرض، فيمثل في النظام التعاوني الإجماعي الذي يسود "سيفاجرام"، غاندي في مدينة وردة. و"سيفاجرام" كلمة مركبة تعني "مركز الخدمة". وقد زرنا هذا المركز الذي اختار غاندي لإقامته هذه البلدة الصغيرة بالذات لأنها تقع في منتصف الهند وتتوسط قلبها تماماً، وخلاصة النظام النموذجي الذي وصفه غاندي وما زال متبعاً في هذا المركز، وفي نحو ٤٠٠ مركز غيره حتى الآن، هو أن يتعاون أهل كل قرية فيما بينهم تعاوناً شاملاً كاملاً، على كفاية أنفسهم بأنفسهم. فيزرعون أرضهم، ويحصدون محصولهم وينسجون ملابسهم، ويحضرون ماءهم، ويعجنون خبزهم، وينتجون كل ما يحتاجون إليه من الزيت والصابون ومنتجات اللبن، وغير ذلك بحيث لا يبقى أحد في المجتمع بلا

عمل، ولا نصيب في ثمرة العمل. كل هذا على شرطين أساسيين: أولهما أن يكون الأساس الذي يسود هدا المجتمع هو التعاون دون التجاء إلى العنف بحال من الأحوال، والثاني أن لا يكون في هذا التعاون نصيب للآلات عدا البسيطة الساذجة التي يديرها العامل بيده أو قدمه! فلا آلات كهربائية ولا طلمبات، ولا نحوها من الآلات الميكانيكية التي تؤدي إلى البطالة وإن أكثرت من الإنتاج!

هذه خلاصة النظرية الاقتصادية والاجتماعية التي يطبقها الآن في وردة وفي غيرها عدد من فطاحل رجال الاقتصاد والاجتماع، الهنود بملابسهم البسيطة وأقدامهم الحافية في قرى الهند النائية، فلا يكاد الذي يراهم لأول وهلة يصدق أنهم خريجو جامعات كمبردج وأكسفورد وأبناء ترف ونعيم قديم.

والمرأة الهندية تقوم إلى جانب الرجل بنصيب كبير من الجهد، وهي تتمتع بحقوقها السياسية، وقد كانت إحدى نساء الهند تتولى منصب الحاكمة العامة لإقليم (المديريات المتحدة) وهي الشاعرة العالمية ساروجيني نايدو، وتتولى اليوم وزارة الصحة في الحكومة المركزية امرأة فاضلة هي السيدة أمريت كاور، وهي مسيحية كانت سكرتيرة غاندي سنوات طويلة وظلت في خدمته حتى قتل. وهناك امرأة تشغل منصب السفيرة، وهي السيدة لاكشمي بانديت شقيقة نهرو التي أسندت إليها سفارة الهند في واشنطن أخيراً. وهناك عدد غير قليل من النساء يشغلن مناصب النيابة في جميع المجالس التشريعية بالهند.

ومع ذلك فإن التقاليد لا تزال تقف دون اختلاط الجنسين حتى في التعليم الجامعي بالهند. وقد كان من أغرب المشاهد التي رأيتها عندما زرت بعض الجامعات الهندية أن للطالبات مدخلاً خاصاً في قاعات المحاضرات، يدخلن منه إلى مقاعد مرتفعة عن مقاعد الطلبة، ومحجوبة عن بقية المقاعد بستار من القماش يظهر أن يد التحرر تعمل فيه عملها كل يوم فلا يكاد يحجب شيئاً على الإطلاق!

وهناك الآن تشريع يجتاز مراحله النهائية يسمى "القانون الهندوكي"، وهو يتضمن نصوصاً تتعلق بالأحوال الشخصية للطائفة الهندوكية، وبمقتضاه يباح الطلاق عندما تحتمه الضرورة -وهو محظور حتى الآن في جميع الأحوال- ويباح كذلك للمرأة حق الإرث، وهي محرومة منه الآن كل الحرمان!

ويميل الهنود على وجه عام إلى الاحتفاظ بتقاليدهم في الملبس والمأكل والعادات. ولهذا تحتفظ المرأة الهندية أينما ذهبت داخل بلادها أو خارجها "بالساري" وهو أشبه "بالملاية". مع زخرفة تتعدد حسب تعدد الأجواء والأذواق والمقدرة على الشراء. وكذلك يحرص الرجال على إيثار الزي الوطني البسيط، حتى أن بعضهم ليحس بالخجل إذا اضطر إلى ارتداء الملابس الإفرنجية.

وكذلك حالهم فيما يتعلق بالطعام؛ فهم -على اختلاف طبقاتهم- يجلسون أرضاً على حصير أو سماط ممدود، وتوضع أمام كل منهم "طبلية" مربعة من الخشب، ثم توضع صينية من النحاس أو ورقة مغسولة من أوراق

الموز، فوق "الطبلية"، ويجلس الرجال في جانب والنساء في جانب آخر. ويطوف الخدم على التوالي بالطواجن والأواني يوزعون على الحاضرين ما يحملون من الملح والسلطة و"الطبيخ" والأرز واللحم –إذا لم يكونوا نباتيين– والشطة والحلوى وهم يتناولون هذا كله بأيديهم في براعة فائقة. وقلما يضطرون إلى استعمال الملعقة الصغيرة التي توضع أمامهم. إلا في حالات قليلة فإذا انتهوا من طعامهم. قدمت إليهم لفافات صغيرة من التوابل يسمونها "ربان".

وبعد، فهذه لمحة سريعة عن الهند اليوم كما شاهدتها، ولا أحب أن أختمها دون الإشارة في أسف إلى أن معلومات الغالبية الساحقة من أهل الهند عن مصر تافهة إن لم تكن معدومة، والمثقفون منهم يتتبعون بأشد الاهتمام أخبار جلالة الملك، ويستزيدون منها، ويعرفون سعد زغلول والوفد ومصطفى النحاس، ويجهلون الحالة الداخلية في مصر سياسياً واجتماعياً جهلاً مطبقاً. والجامعات الإسلامية كجامعه عليكرة والجامعة العثمانية في حيدر آباد لا تكاد تدرس شيئاً عن الحركة الوطنية الحديثة في مصر، وان كانت مكتباتها تضم كتباً معدودة على الأصابع لطه حسين وأحمد أمين وحسن إبراهيم حسن وأحمد حسن الزيات.

وقد كان السؤال الذي ألقي عليّ في كل مكان أكثر من أي سؤال آخر هو: هل الفرنسية عندكم أكثر شيوعاً من الإنجليزية؟ وقد سمعت هذا السؤال من نظام حيدر آباد وحاكم البنغال الغربية ومن الصحفيين وطلاب الجامعات، وكان بعضهم يسأل عما إذا كانت صحفنا تصدر باللغة العربية أم باللغة المصرية!

وفي متحف مدينة حيدر آباد وجدت بين المعروضات صندوقاً زجاجياً به مومياء مصرية ظهرت بعض أصابع قدميها بحالة تامة، ولم أجد على الصندوق كلمة واحدة تتضمن شيئاً عن أصل هذه المومياء أو فصلها. ولما سألت "البروفسور" الذي كان يرافقنا قال إنه لا يدري، ولكن يبدو أن أحد الكبراء اشتراها من مصر وجلبها إلى حيدر آباد قبل أن تتخذ الحكومة المصرية الإجراءات اللازمة لمنع تسرب الآثار.

ومع ذلك فهناك شوق شديد لتعرف أخبار مصر وأحوال مصر وتوثيق علاقة التعاون والمودة بين الهند ومصر.

زهرتان وشوكتان

حيدر آباد وكشمير

هما زهرتان من أنضر، وأعطر، الأزهار في بستان الهند، وهما أيضاً – ويا لسخرية القدر– شوكتان من أخطر الأشواك التي تدمي جنبي الهند!

إن أعمدة الصحف في الهند والعالم أجمع ما زالت حتى اليوم تفيض بالأنباء المغرضة والبريئة، كما تفيض بالتكهنات عن مصير البلدين. وإن كانت كل الدلائل تشير إلى أن مصيرهما، أو على الأقل مصير حيدر آباد قد تقرر بالفعل.

لقد زرت البلدين، ونزلت في عاصمتيهما أياماً، ونعمت –مع زملائي الصحفيين– بأمتع وأجمل فترة من فترات الهدوء والراحة في دار الضيافة الفاخرة بكلا العاصمتين. ومع ذلك فإن جواً رهيباً من القلق والانتظار كان يختلط بجو الربيع الفاتن هنا وهناك، رغم البعد الشاسع بين حيدر آباد الدكن التي يسمونها "بطن الهند" وبين وادي كشمير الجميل في أقصى الشمال.

وإن وجوه الشبه لتتعدد بين البلدين على نحو يثير العجب. فكلاهما يتمتع بشهرة عالمية؛ كشمير بأصوافها وحيدر آباد "بنظامها".

وكلاهما يثير مشكلة عالمية، وكلاهما يعاني من حاكمه المستبد؛ ففي كشمير تعاني الأغلبية المسلمة أشد الويلات من المهراجا الهندوكي المستبد، وفي حيدر آباد تعاني الأغلبية الهندوكية أشد الويلات من الحاكم المسلم المستبد الذي يحمل لقب "النظام".

ومع اختلاف دين الأغلبية في كل من حيدر آباد وكشمير، فإن

البانديت نهرو زعيم الهند ورئيس حكومتها قد انتصر للأغلبية وأيد زعماءها بالقوة المسلحة في الحالتين. فغزا حيدر آباد وأرغم النظام على الاستسلام، وأرسل قواته لنجدة الشيخ مُحَمَّد عبد الله ورد القبائل الغازية عن كشمير، وكلاهما أخيراً وليس آخراً، يسير الآن في طريق الإصلاح الاجتماعي ومحاربة خطر الشيوعية بخطوات سريعة حاسمة.

حيدر آباد

وحيدر آباد، الولاية التي تسمى عاصمتها بهذا الاسم أيضاً، هي الشطر الشرقي من شبه جزيرة الدكن. ومساحتها ٨٢.٦٩٨ ميلاً مربعاً، أي أنها تزيد على مساحة إنجلترا وإسكتلنده معاً. ويبلغ مجموع سكانها، طبقاً لآخر إحصائية رسمية أجريت في سنة ١٩٤١، ١٦.٢٠٠.٠٠٠ نسمة منهم ٧٢٨.٠٠٠ يسكنون مدينة حيدر آباد، التي تعد رابعة مدن الهند من حيث ضخامتها.

وقد كان النظام الإقطاعي سائداً في حيدر آباد إلى أن وقع الصدام التاريخي في سنة ١٩٤٨ بينها وبين حكومة الهند الوطنية في دلهي على النحو الذي سنوجزه فيما بعد.

وأمير حيدر آباد، المشهور بالنظام، يحمل الألقاب التالية منذ سنة ١٩١١: "صاحب السمو الأسمى، رستم الوردان، أرشد الزمان، الأمير الآي مظفر الملك والمماليك، خان ميرسير عثمان علي خان بهادور، الفاتح الظافر، الحليف الوفي للحكومة البريطانية، نظام الدولة، نظام الملك، آصف شاه، نظام حيدر آباد وبيرار"!

وهو سابع نظام لحيدر آباد، ويدعي أن أباه من نسل أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر –رضي الله عنه– وأن أمه من نسل رسول الله سيدنا مُحَّد – عليه الصلاة والسلام–.

ورأس أسرته ومؤسسها هو قلج خان، أول نظام للملك، وتختلف الروايات في شأن الأساس الذي قامت عليه هذه الدولة؛ فالذين في صف النظام يقولون بأنها أسست في سنة ١٧٢٤، حين ثار مؤسسها على حكم السادة في دلهي، وشق طريقه إلى الجنوب، وأنزل الهزائم بالجيوش التي أرسلها الإمبراطور من دلهي لتقطع عليه الطريق، والتقى بها في موقعة حاسمة بمقاطعة بيرار، فلما استقر له الأمر أنعم عليه إمبراطور دلهي بلقب نائب الملك واعترف به. وقد مات قلج خان سنة ١٧٤٨ في سن الرابعة بعد المائة.

أما خصوم النظام فيقولون إن دولة حيدر آباد نزعت نزعاً من مدراس وبمباي والأقاليم الوسطى لكي تكون هدية من الإنجليز إلى النظام الأول، مكافأة له على خيانة ارتكبها لمصلحتهم ضد الفرنسيين الذين حاولوا منازعتهم النفوذ في بعض أنحاء الهند.

وقد ولد النظام الحالي في سنة ١٨٨٦، أي إنه الآن في الرابعة والستين من عمره، ومع ذلك فقد بدا لنا حين قابلناه في قصره أكبر من ذلك بكثير، إذ كان الهزال بادياً عليه، والتجاعيد تملأ وجهه، ويداه ترتعشان بدون انقطاع، وقيل إن سبب ذلك إدمانه بعض المكيفات.

وقد خلف عثمان علي خان آباد محبت علي خان بعد وفاته في سنة

١٩١١، وكان قد تزوج في سنة ١٩٠٦، أي في العشرين من عمره، زوجته الأولى دولهان باشا، وأنجب منها في سنة ١٩٠٧، ولي عهده الأمير همت علي خان (عزام شاه) الذي يلقب الآن بأمير بيرار، وهو متزوج من الأميرة دره شاه كريمة السلطان عبد المجيد آخر سلاطين آل عثمان. والأمير معظم شاه (شجاعت علي خان) وقد تزوج من الأميرة نيلوفار التركية.

وتقدر ثروة النظام بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠ و٨٠٠ مليون جنيه، وهي أكبر ثروة لأي حاكم في العالم، وله قصور فخمة في دلهي وبمباي وبونا ولكنه قلما ينزل فيها. وهو مشهور بتقتيره كما هو مشهور بثروته.

وقد كنت –وما زلت– أتردد في تصديق ما يروى عن بخله، ولكن رصيد التردد عندي هبط كثيراً عندما قابلت النظام في قصره بعد عشر سنوات من سماع هذه القصة. فإن ملابس الرجل كانت من أردأ أنواع القماش، وكان طربوشه رثا بالياً تشمئز لمنظره النفوس. وجوربه متدلياً لا يمسكه شيء حول ساقيه النحيلتين، وحذاؤه مركوباً من أرخص الأنواع التي تعرض على الأرصفة ويطوف بها الباعة المتجولون، ولم يكن يزين أصابعه أو صدره بأي أنواع الزينة.

ومع ذلك فإن من مقتضيات الإنصاف أن أذكر أن كثيرين من أنصار الرجل ينسبون ذلك إلى تقشف طبيعي فيه، وإلى شدة كراهيته للتجمل والترف، وهم يدللون على ذلك بواقعة مشهورة خلاصتها أن أحد كبار العلماء المسلمين في شمال الهند التمس مقابلة النظام وسافر إلى حيدر آباد

خصيصاً من أجل هذه المقابلة، في الموعد الذي حدد لها، ولما وصل العالم الكبير الشهير أُدخل إلى قاعة الاستقبال في انتظار دعوته للتشرف بالمقابلة، ويظهر أن من عادة النظام أن يسترق النظر من خلف الأستار ليرى ملامح زائره قبل مقابلته. فلما لمح صاحبنا وجده قد حضر في أبهى زينته وأفخر ملابسه.

وعاد الشيخ (المطمطم) دون أن يتشرف بمقابلة النظام الذي هاله أن يحفل رجل الدين بمظاهر الترف والأبهة إلى هذا الحد!

ويستيقظ النظام عادة في الساعة السادسة من صباح كل يوم، فيؤدي الصلاة، ثم يطالع الصحف، ويعكف على البت في شئون الدولة بنفسه من الساعة العاشرة إلى الرابعة بعد الظهر. وعند مغرب كل يوم يذهب إلى قبر أمه ليقرأ الفاتحة على روحها. وقد خلد ذكراها بتخصيص ٢٠٠ ألف روبية في العام لإعانة فقراء التلاميذ والتلميذات من جميع الطوائف على إتمام دراستهم.

ويجب أن يسجل الباحث المنصف أن من مفاخر نظام حيدر آباد عنايته بنشر التعليم عناية بلغت ذروتها حين خرجت الجامعة العثمانية في حيدر آباد إلى حيز الوجود. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى سموه، إذ أنه أصدر فرماناً (هكذا يسمى مراسيمه تشبهاً بسلاطين تركيا) بإنشائها في ٢٦ أبريل سنة ١٩١٧، وقد افتتح سموه كلية الآداب في سنة ١٩٣٧، ومنح سموه أعلى درجاتها الفخرية وهي درجة "سلطان العلوم"!

وقد زرت الجامعة العثمانية زيارة سريعة، وطفت بقاعات المحاضرات في

كلية الآداب، وتفقدت مكتبتها، فوجدتها من الداخل صورة تكاد تكون طبق الأصل من كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول، مع فارق اللغة بالطبع، وإن كانت اللغة الأوربية تكتب بالحروف العربية، وتحمل نسبة ضخمة من الألفاظ العربية.

ومن أغرب ما لفت نظري في قاعات المحاضرات أن جانباً من المقاعد في أقصى القاعة، يرتفع عن بقية المقاعد، ويفصله عنها ستار لا يمنع الإنصات للدروس ولكنه يمنع الطالبات من النظر إلى الطلبة والعكس بالعكس، ولكن الطالبات تحالفن مع الزمن في هلهلة الستار وتمزيقه وتخريقه، حتى أصبح عاجزاً عن أداء وظيفته كل العجز!

ولاحظت كذلك أن كليات الجامعة العثمانية ليست مبعثرة في أطراف المدينة كما هي الحال في جامعة فؤاد الأول مثلاً، ولكنها تقوم في خارج المدينة وسط فضاء متسع، يكفل وجود الكليات في مكان واحد كما يكفل إفساح المجال للتوسع في أبنيتها وزيادة مساكن الطلبة والطالبات في المستقبل.

على أن الميزة الكبرى للجامعة من الناحية الشكلية هي الطراز الهندسي الذي بنيت عليه. وهو الذي يسمونه هناك بالطراز العثماني – نسبة إلى النظام الإسلامي والفن الهندوكي الوثني في البناء– وقد وضع هذا الطراز رجل من أعظم مهندسي حيدر آباد والهند كلها. وقد انتخب سنة ١٩٤٥ رئيساً لمعهد المهندسين (في جميع أنحاء الهند)، وهو سيد زين الدين حسين خان الذي يعرف رسمياً باسم نواب زين جنج بهادور، وهو الآن

وزير الأشغال والعمل والشئون الصحية والطبية والبلدية في حكومة حيدر آباد المؤقتة (وهي الحكومة التي أقامتها الهند بعد فتح حيدر آباد سنة ١٩٤٨)، وقد كان الوزير الوحيد الذي حضر معنا مقابلة النظام مع الجنرال تشودري الحاكم العسكري العام.

وقد أتيح لي أن أجتمع بهذا الوزير المهندس العظيم عدة مرات، كما تصادف سفره معنا بالطائرة من حيدر آباد إلى دلهي فجلسنا نتحدث طويلاً حول مسائل سياسية واجتماعية وثقافية شتى، فوجدته يعرف مصر ويعرف عدداً من كبار مهندسيها، وقد أبدى لي شديد أسفه لعدم اهتمام مصر بابتداع طراز هندسي حديث، على غرار الطراز العثماني، يجمع بين الطرازين الفرعوني والعربي، ويتخذ طابعاً للمنشآت القومية الكبرى في مصر، كجامعة فؤاد الأول التي أدهشه حين زارها أن يجدها مبنية على طراز لا يمت إلى الفرعونيين أو العرب بسبب.

ونعود إلى الحديث عن نظام حيدر آباد، فنقول –إنصافاً له أيضاً– إنه لم يدخر وسعاً في توكيد روح التسامح التي ينظر بها، ويعامل بها رعاياه من مختلف الأديان والعقائد، وثمانون في المائة منهم أو يزيدون من الهندوكيين، ومن ذلك قوله في عبارات مؤثرة تنم عن إخلاص وصدق بروح إسلامية صحيحة:

"مهما يكن دين بيتنا المالك، ومهما تكن معتقداتي الشخصية، فإنني كحاكم أعتبر نفسي من أتباع دين آخر كذلك قوامه (المحبة نحو الجميع). وذلك لأن تحت حكمي أناساً من مختلف المذاهب، والطوائف، وقد كانت

حماية دور عبادتهم من زمن طويل جزءاً لا يتجزأ من دستور دولتي".

وذهب النظام إلى أبعد من ذلك فقال في بيان رسمي:

"إنني بوصفي حاكماً، أعتبر نفسي بلا دين، لا بمعنى أنني ملحد، ولكن بمعنى أنني كحاكم لا أتحيز لمصلحة أو ضد مصلحة دين بعينه أو طائفة دينية بعينها، وقد كانت هذه الخطة وستظل من دواعي الفخر لي ولأسلافي، وأدعو الله أن ينهج خلفي مثل هذه الخطة نفسها".

ورغم كل ما قرأت، وسمعت، مما للنظام وما عليه، فإنني لا أستطيع أن أشك في صدق إيمانه بسلامة هذه الخطة واستقامتها. ولهذا لم أدهش حين علمت أن تسعين في المائة من الحراس والخدم المعينين في القرى لخدمة المساجد والمعابد مما هم من الهندوكيين. وأن هناك على الأقل ١٢٥ مسجداً وضريحاً يديرها ويعني بخدمتها هندوكيون يتقاضون في سبيل ذلك مكافآت من الحكومة، كما تنفق الحكومة مرتبات وتخصص مبالغ طائلة من التبرعات والأوقاف وغيرها لصيانة المعابد واكتشاف الآثار الهندوكية وصيانتها ويوجد منها في ولاية حيدر آباد نحو ٣٢ ألف معبد للهندوكيين و٦ آلاف مسجد للمسلمين.

ومع ذلك فإن سوء الإدارة في ظل الحكم الاستبدادي، أدى إلى اختلال خطير في التوازن بين نسبة الهندكيين إلى المسلمين في وظائف الحكومة، حتى أصبحت نسبة المسلمين في وظائف الدولة نحو تسعين في المائة، مع أن نسبتهم بين مجموع السكان لا تتجاوز ١٢ أو ١٥ في المائة!

والحق أن عيوب النظام تكاد تلخص في ناحيتين:

الأولى: ولاؤه الأعمى للاستعمار البريطاني، ومجاهرته بل مفاخرته بهذا الولاء.

والثانية: إصراره على التمسك بأهداب الحكم المطلق الأوتوقراطي، والإقطاعي، في القرن العشرين!

أما ولاؤه للاستعمار البريطاني فأشهر من أن يذكر. وقد استحق من أجله أن يتلقى من الملك جورج الخامس خطاباً مؤرخاً في **٢٤** يناير سنة **١٩١٨**، كتبه الملك جورج في قصر بكنجهام وقال فيه:

"إنه لمن أكبر دواعي ارتياحي أن أعلن عن تقديري للخدمات العظيمة التي قدمتها لإمبراطوريتي خلال الحرب، وذلك بمنحك لقباً خاصاً هو (صاحب السمو الأسمى)، وتثبيت لقبكم الفخري رسمياً وهو لقب (الحليف الأمين للحكومة البريطانية) الذي أكدتم به يا صاحب السمو الأسمى، أنتم وأسلافكم، ولاءكم للأسلاف ولي"!

وقد أنعم بلقب "الحليف الأمين" على أحد حدود النظام الحالي تقديراً لولائه وتفانيه في خدمة الاستعمار البريطاني في الهند نفسها. ويُروى عن ذلك النظام أنه دعا إليه ولي عهده ساعة احتضاره، وهمس إليه بوصيته الأخيرة، وكان أهم بند فيها ألا ينحرف قيد شعره عن ولائه للحكومة البريطانية!

ويذكر تاريخ العائلة الأصفية، وهو لقب عائلة النظام، أن جيوشها حاربت على الدوام في جانب الجيوش البريطانية ضد كل عصيان أو ثورة قامت في الهند ضد الاستعمار البريطاني، بما فيها الثورة الهندية المسلحة

الكبرى، في أواخر القرن الماضي، وهي الثورة التي يسميها الإنجليز بالتمرد الأكبر، وقد كادت تقضي على الحكم البريطاني في الهند قضاء مبرماً، حتى لقد أبرق حاكم بومباي البريطاني أن المقيم البريطاني لدى بلاط النظام يومئذ يقول له: "إذا ذهب النظام، ضاع كل شيء"!

ويذكر التاريخ القريب أن والد النظام الحالي كان أسبق أمراء الهند إلى تقديم خدماته الشخصية وتسخير موارد دولته لمساعدة الجيش البريطاني على قمع المسلمين الثائرين في منطقة الحدود الشمالية الغربية، كما يذكر التاريخ أن ذلك النظام نفسه كان أول من أنشأ "الفرقة الإمبراطورية الخاصة للدفاع عن الإمبراطورية البريطانية".

أما النظام الحالي فلم يكن أقل تحمساً للإمبراطورية البريطانية من أسلافه، ولعله بزهم جميعاً.. وهو شديد الفخر والاعتزاز بولائه للإمبراطورية، ولهذا لا يدع مناسبة دون التنويه به، وقد قال في ذلك ذات مرة:

"لقد حدث في أكثر من أزمة واحدة أن شهر ملوك العائلة الأصفية سيوفهم دفاعاً عن شرف الإمبراطورية البريطانية وسلامتها"!

ولما قامت الحرب العالمية الأولى وضع النظام جيوشه وموارده تحت تصرف بريطانيا، واستغل اسمه ومكانته كمسلم ينتسب إلى بيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأصدر نداء إلى المسلمين في الهند وغيرها يدعوهم لمحاربة جيوش الخليفة العثماني.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ سارع

النظام إلى إذاعة نداء تاريخه ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٩ جاء فيه بالحرف الواحد:

"لقد أبلغت نائب الملك أنه كما هرع أسلافي لنجدة الحكومة البريطانية خلال الأزمات الماضية وكما حاولت أن أقدم كل خدمة بكل وسيلة أستطيعها خلال الحرب السابقة في سنة ١٩١٤، فإنني على استعداد لتكرار ذلك بالطريقة نفسها، وإنني أرى ذلك واجباً عليَّ حتى يظل المعنى الحقيقي للقب (الحليف الأمين) الذي منحته الحكومة البريطانية لبيتي المالك قائماً أمام أعين العالم".

واستطرد النظام فطلب من المسلمين في أنحاء الهند كلها أن ينسوا خلافاتهم الكبيرة والصغيرة جميعاً ويركزوا جهودهم في مساعدة بريطانيا، حتى يزول كل خطر على الإمبراطورية البريطانية، ثم يقول:

"فإنني لا أتردد قط في أن أقول إن ظل الحكومة البريطانية الوارف الظليل الذي تعيش تحته الهند منذ أمد طويل، إنما هو نعمة لهذه البلاد ليس لها مثيل، وذلك ما لا يستطيع أحد أن ينكره.. إلخ إلخ"!

وقد خطب النظام في المأدبة الرسمية التي أقيمت تكريماً للنائب الملك في الهند في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤، فذكر بالفخر مساهمته الشخصية ومساهمة بلاده في نفقات الحرب العالمية الثانية فقال:

"إن مساهمتي الشخصية بلغت ٦٠ ألف جنيه لإعداد سرب من الطائرات المقاتلة و٧٠٠.٠٠٠ روبية تبرعاً في الاكتتاب الذي افتتحه الحاكم العام لأغراض الحرب، وبلغت قيمة المصروفات والنفقات المباشرة

وغير المباشرة التي قدمتها حكومتي نحو ٦٣.١١٠.٠٠٠ روبية أي نحو خمسة ملايين من الجنيهات.

وكذلك تبرعت حكومتي بنحو ٥.٢٥٠.٠٠٠ روبية لوزارة الطيران البريطانية والإميرالية البريطانية.

وساهمت حيدر آباد في محاربة التضخم النقدي. ويسرني أن أقول إن حكومتي قد استطاعت حتى الآن أن تكتتب بأكثر من ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ روبية في قرض الدفاع وغيره من قروض الحكومة الهندية".

ومن الغريب أن الرجل الذي يغدق هذا المال من خزائنه ومن خزائن حكومته لخدمة أغراض الاستعمار البريطاني باعتباره "الحليف الأمين للحكومة البريطانية" قد بلغ به الشح والتردد حدوداً مزرية حين ذهب إليه في سنة ١٩٣٣ سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، ومعه سعادة الأستاذ مُحَمَّد علي علوبة باشا (سفير مصر في الباكستان الآن)، وعرضا على سموه حاجة فلسطين المجاهدة للمال والإصلاح فاعتذر لهما بأنه لا يريد أن يقدم على تصرف يتعارض مع السياسة البريطانية، فقالا له إن هناك مشروعاً لإنشاء مدرسة إسلامية كبرى بالقدس تبرع لها أهل فلسطين بعمارة ثمنها مائة ألف جنيه، ورصدوا لها إيراداً سنوياً قدره عشرة آلاف جنيه من الأوقاف فلا أقل من أن يساهم سموه بجانب من المال لإتمام المشروع وهو مشروع غير سياسي، فوعدهما بالنظر في الموضوع، ثم كان كل ما تبرع به مائة ألف روبية (أي أقل من سبعة آلاف جنيه) أرسلها بطريق اللورد ريدنج اليهودي الذي كان إذ ذاك نائباً للملك في الهند

وطلب تسليمها إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين!

وقد ظل المبلغ محجوزاً لدى الإنجليز في فلسطين حتى غادروها سنة ١٩٤٨ وسلموا المبلغ إلى إدارة الأوقاف بالقدس.

إلى هذا الحد بلغ استسلام الرجل للإنجليز، وولاؤه الأعمى للإمبراطورية البريطانية.

أما الناحية المظلمة الأخرى في طبيعته، فهي تمسكه بنظام الحكم الإقطاعي الاستبدادي رغم تطور الدنيا من حوله، وانتشار النظام الديمقراطي في بقية أنحاء الهند.

ويملك نظام حيدر آباد نحو ثمن مساحة الدولة، أي أكثر من عشرة آلاف ميل مربع من الأرض الزراعية، ويذهب إيرادها كله إلى خزانته الخاصة، وتسمى هذه الممتلكات باسم "الصرف الخاص"، وله مطلق التصرف فيها لحسابه الخاص، وأن يديرها وزير من الوزراء يتبع النظام مباشرة، ولها بوليس خاص وخزانة خاصة ونظام خاص للمحاسبة.

وقد أصدر النظام في أوائل العام الحالي، وبعد مفاوضات بينه وبين حاكم حيدر آباد العسكري، فرماناً يقضي بوضع "الصرف الخاص" تحت رقابة الحكومة تتصرف فيها وتديرها طبقاً لما تراه.

وقد بدأ الاحتكاك بين الهند والنظام يتخذ مظهر عملياً عندما تفاقمت اعتداءات فرقة الرزاقة، برئاسة قاسم رزقي ضد الهندوكيين، متخذين من التعصب الديني وسيلة للنهب والسلب حتى إذ كان اليوم السابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٨، وقف البانديت نهرو في البرلمان

الهندي، وألقى خطاباً خطيراً قوبل بالتأييد والتصفيق الحاد أعلن فيه أول إنذار نهائي وجه إلى نظام حيدر آباد. وفي ختام الخطاب أشار الانديت نهرو إشارة صريحة إلى نوايا الحكومة الهندية، واحتمال قيامها "بحركة بوليسية" ضد حيدر آباد فقال:

"ومهما تكن الخطوات التي قد نتخذها في صورة حركة بوليسية أو غيرها، فإن تعليماتنا ستكون محددة وصريحة بأن تقمع بأقصى الشدة أية مشاغبات طائفية من أي نوع كانت ومن أي طائفة جاءت"!

ولم يكد خطاب الانديت نهرو يعلن حتى بادر كثيرون من أصدقاء النظام وفي مقدمتهم نواب رامبور (وهو من الأمراء المسلمين) إلى تقديم النصح الخالص إليه بالتخلص في الحال من الرزاقة، وإقامة حكومة ديمقراطية، وإعلان انضمامه إلى اتحاد الهند، ولكن هذه النصائح كلها ذهبت مع الأسف أدراج الرياح، ورفض النظام رفضاً باتاً أن يسمح بعودة القوات الهندية أو يخطو أية خطوة للاتفاق مع حكومة الهند، معتمداً فيما يبدو على نجدة الحكومة البريطانية التي يحمل عندها لقب "الحليف الأمين". ولعله كان يتوقع منها على الأقل أن تحول بين الهند وبين حل النزاع بالقوة المسلحة، وهو أمل قد لا يكون مفهوماً أو سائغاً لدى البعيدين عن مسرح الحوادث، ولكنه كان ولا شك قائماً على عقيدة راسخة لدى النظام بأن بريطانيا هي كل شيء، وأن "حليفها الأمين" يستطيع أن يعتمد عليها في كل شيء.

ورغم ذلك فقد وقع ما كان يراه النظام مستحيلاً، ودقت الساعة

الفاصلة في الساعة الرابعة من صباح يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٨، إذ دخلت القوات الهندية حدود حيدر آباد من عدة جهات.

وكان الهجوم الرئيسي من ناحية شولابور، تحت قيادة الجنرال تشودري، أصغر قواد الجيش الهندي. بينما قام سلاح الطيران الهندي في ثماني ساعات بتحطيم جميع مطارات النظام، وبذلك استحال على طائرات النظام أن تؤدي أي عمل من الأعمال، كما استحال وصول أي مدد جوي من باكستان أو غيرها من البلدان التي كان يخيل للنظام أنه يستطيع أن يعتمد عليها في ساعة المحنة التي جرها على نفسه وبلاده.

ولم يدم القتال سوى خمسة أيام رأى خلالها السيد لايق علي رئيس الوزراء أن يرفع استقالته إلى النظام. فأذاع في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٧ سبتمبر بياناً بالراديو مودعاً منصبه بهذه العبارات:

"إن تاريخ الأيام الخمسة الماضية لا يمكن أن ينسى، وقد أدركنا اليوم، وهو خامس أيام الصراع، أننا قد حاربنا جهد ما استطعنا. وقرر مجلس الوزراء في ساعة مبكرة من هذا الصباح أنه لا محل لتضحية الدماء البشرية بلا جدوى.

وقد رأى المجلس بعد استعراض هذه الحقائق أن يرفع استقالته، ويضع مسئوليات الحكم بين يدي الحاكم الكريمتين (أي النظام).

ومع أن هذا الرجاء المتواضع وصل متأخراً فإن النظام قد قبله. ووافق على أن ينهض بكامل المسئولية ويؤلف وزارة جديدة تتولى الحكم من الغد.

وكذلك أمر بوقف إطلاق النار في الساعة السابعة عشرة بعد ظهر

اليوم من جانب قوات حيدر آباد.

وقد أخطر حاكم الهند العام بأن قوات الجيش الهندي تستطيع أن تتقدم دون مقاومة إلى سكندر آباد، وأن هيئة الرزاقة ستحل".

وهكذا طارت آمال النظام الكاذبة في المقاومة أو النجدة.

وفي ساعة مبكرة من صباح يوم ١٨ سبتمبر جرت مراسم تسليم الجنرال عيدروس، قائد جيش حيدر آباد، للجنرال تشودري على مقربة من سكندر باد.

أما قاسم رزقي زعيم الرزاقة الفاشستي، الذي أشعل نار الفتنة وغرر بالنظام، وأضاع كل فرصة للاتفاق مع الهند، فقد أزال لحيته وهرول إلى مطار سكندر آباد فوجده حطاماً، وكان في مقدمة الأوامر التي أصدرها الجنرال تشودري بوصفه حاكماً عسكرياً، أمر بالقبض على قاسم رزقي، فقبضت عليه قوات حيدر آباد وسلمته للسلطات الهندية.

وكان النظام قد أرسل إلى مجلس الأمن شكوى من غزو بلاده، أثيرت حولها مناقشات حامية، وأيدها ممثل بريطانيا بطبيعة الحال، ثم أجلت المناقشة أياماً كانت الحوادث خلالها قد تطورت على النحو الذي أسلفناه، فأرسل النظام في ١٨ سبتمبر برقية إلى وفد حيدر آباد يطلب منه سحب الشكوى، فلما رفض الوفد تنفيذ أمره، عاد فأرسل برقية أخرى إلى مستر تريجفي لي بوصفه سكرتيراً عاماً لهيئة الأمم المتحدة يبلغه دهشته لما جاء في الصحف من أن السيد ظافر أحمد وزير خارجية حيدر آباد صرح أمام مجلس الأمن بأنه لم يتلق أية تعليمات بسحب الشكوى مع أنه أرسل

برقية إلى نواب معين نواز بذلك. وأضاف النظام أنه دفعا لكل شك يوجه الخطاب مباشرة إلى مستر تريجفي لي طالباً سحب الشكوى.

وفي ٢٣ سبتمبر أذاع النظام أمام الميكروفون –للمرة التالية في حياته– بياناً قال إنه يوجهه إلى "الزعماء والأصدقاء في البلاد الإسلامية".

وفي هذا البيان استنكر النظام بشدة حكم الرزاقة الإرهابي الذي دام ثمانية أشهر، وقال إن وزارة لايق علي فرضت عليه فرضاً، وسلبته كل سلطة. ثم قال النظام بالحرف الواحد:

"إن هذه الجماعة، وعلى رأسها قاسم رزقي، استولت على مقاليد الحكم بأساليب تعيد إلى الذهن ذكرى ألمانيا النازية ونشرت الذعر في نفوس مختلف عناصر المجتمع، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، التي رفضت أن تركع لمشيئتها، كما ارتكبت جرائم السلب والنهب على أوسع نطاق ولا سيما ضد الهندوكيين وجعلتني في حالة عجز مطلق".

واستطرد النظام فقال: "إن تلك الجماعة كانت تهدف إلى إنشاء دولة إسلامية لا يتمتع بجنسيتها وحقوقها سوى المسلمين في حيدر آباد"، ثم قال:

"وإن طبيعة الأشياء في حيدر آباد، التي بين سكانها ٨٦ في المائة من الهندوس، تأبى أن تجعل من حيدر آباد دولة إسلامية".

وكان قد ذاع أن الحكومة العسكرية الهندية تضيق الخناق على النظام فأذاع في ٨ أكتوبر "فرماناً" قال فيه:

"نقل إلى علمي، كما أنني طالعت في بعض الصحف الأجنبية روايات

مفادها أنني أعاني ضغطاً وتضييقاً على حريتي في التنقل، وبعبارة أخرى أنني لست حراً في تصرفاتي. وهذا غير صحيح على الإطلاق. فإنني على العكس أرتبط بأوثق الروابط القلبية مع الاتحاد الهندي والإدارة العسكرية، ولم أتعرض لأي ضغط من أي نوع كان، بل إنني أتمتع بكل صنوف الاحترام والمجاملة التي تليق بمركزي السامي كرئيس للدولة".

وعندما زار السردار باتل ولاية حيدر آباد في فبراير من العام الماضي (١٩٤٩) استقبله النظام والحاكم العسكري في المطار، وألقى خطاباً على الجماهير في ميدان الفاتح حمل فيه حملة شعواء على نظرية الشعبين (الهندوكي والمسلم) واستحالة التعاون بين الطائفتين، ونصح للذين يعتنقون هذه النظرية أن يذهبوا إلى باكستان، وأضاف إلى ذلك قوله:

"ولا سبيل إلى التقدم إذا لم تكن هنالك وحدة كاملة بين الهندوس والمسلمين والمسيحيين والمنبوذين. وعلى كل فرد من هذه الطوائف أن يعتبر كل فرد من الطوائف الأخرى أخاً له. وعلى الأغلبية أن تخلق في نفس الأقلية شعوراً بالاطمئنان. فلابد أن تشعر الأقلية (أي المسلمون) بأنها في أمن وسلام، وأنها ستظفر بنصيبها الحق. وعلى الأقلية من جانبها أن تكون مخلصة للدولة.

لقد ولدنا جميعاً ونشأنا في أرض واحدة، وعلينا أن نعيش ونموت معاً في هذه الأرض نفسها، وأن نؤمن إيماناً قلبياً بتعاليم المهاتما غاندي".

وقد اختفت هذه النغمة الرقيقة حينما تحدث رجل الهند الحديدي عن الشيوعية فقال:

"إنني لن أسمح لشيوعي واحد هنا أن يظل على قيد الحياة؛ لأن الشيوعية لن تنفث سمومها عندئذ في هذه الولاية وحدها بل في الهند كلها. ولا أظنكم تريدون أن تصبح الهند وقوداً لنار الشيوعية كبورما والصين"!

أما الحاكم العسكري في حيدر آباد الجنرال تشوردي فقد تحدثت عنه في مكان آخر من هذا الكتاب، ويحسن أن نختتم هذا الفصل بكلمة أذاعها بخمس لغات في منشورات ألصقت بأنحاء البلاد قال فيها:

"إن الحكومة العسكرية لا تعرف المحاباة الطائفية، وقد ضربت وستضرب بشدة على أيدي مخالفي القانون من أي طائفة كانوا. انشروا إنجيل السلام بين الطوائف، التي خلقها الله كلها متحدة ولكن الإنسان وحده، بجهالته، سعى إلى تمزيقها والتفريق بينها، فعلى كل منكم أن يفكر للسلم، ويتكلم للسلم، ويعمل للسلم. ولن يكتب لكم النجاح والفلاح إلا إذا جمعت بينكم روابط الأخوة وعشتم فيما بينكم أخوة".

هذه قصة حيدر آباد، ونظام حيدر آباد، على حقيقتها بلا مواربة ولا مجاملة. وهي قصة كاد الذين أساءوا فهمها عن قصد أو غير قصد، يضعون مصر والشرق الأوسط في أحرج الأوضاع، ويفقدونهما صداقة الهند وزعمائها، لولا مسارعة سفير الهند في مصر، المغفور له الدكتور سيد حسين، إلى مصارحة المسئولين والرأي العام في مصر بالحقائق الدامغة عند اشتداد النزاع بين الهند وحيدر آباد وخلاصه هذه الحقائق أن حيدر آباد ليست دولة إسلامية، وليست بلداً مستقلاً، ولا ديمقراطياً، وأن النزاع القائم بشأنها إنما هو نزاع داخلي محض.

كشمير

أما كشمير فلها قصة أخرى، وإن لم تكن بعيدة الشبه عن قصة شقيقتها المنكودة الحظ حيدر آباد.

وكشمير أكبر ولاية في الهند كلها، إذ أن مساحتها ٨٤.٤٧١ ميلاً مربعاً. وتقع في أقصى الشمال الغربي للهند، وتمس حدودها الهند، وباكستان، والتبت والتركستان الصينية، والتركستان الروسية.

ومجموع سكان كشمير لا يزيد كثيراً على أربعة ملايين نسمة، أي بنسبة ٤٣ نسمة لكل ميل مربع. وبها عاصمتان هما جامو العاصمة الشتوية، وسريناجار أو شريناجار العاصمة الصيفية وبها كذلك ٣٩ مدينة و٨٩٠٣ قرى، والسكان موزعون على الوجه التالي:

المسلمون- ٣.٠٠٠.٠٠٠ نسمة.

الهندوس- ١٠٠.٠٠٠ نسمة.

السيخ- ٦٠.٠٠٠ نسمة.

البوذيون- ٣٨.٨٢٤ نسمة.

المسيحيون- ٢.٣٠٠ نسمة.

وتعيش هذه الطوائف كلها في تضامن واتحاد يضرب بهما المثل، وأكبر موارد البلاد هي السياحة؛ إذ يفد عليها في فصل الصيف من أنحاء العالم ألوف من السائحين الذين يطلبون في هذا الوادي الجميل، عند سفح جبال الهمالايا متعة للعين ورياضة للجسم قل إن يوجد لهما مثيل.

والزراعة هي المهنة الرئيسية للغالبية العظمى من السكان. ومع ذلك فإن كشمير ثروة معدنية وفيرة جداً من مناجم الفحم والبترول والحديد والرصاص والذهب والكروم والنيكل والزرنيخ والرخام وغيرها.

ومن الصناعات المزدهرة التي تمتاز بها كشمير صناعة الصوف الكشميري المشهور بجودة أنواعه، وأشهرها الصوف المعروف بالباشمينا، وتوضع عدة ياردات منه في حلقة خاتم صغير، ويصل ثمن القطعة إلى ثلثمائة أو خمسمائة جنيه.

وقد احتضنت الحكومة صناعة الحرير، وأنشأت مصنعاً حكومياً كبيراً لأصناف الحرير الطبيعي في شريناجار.

وهناك صناعة القطع الخشبية المشغولة بدقة تدعو إلى الدهشة وصناعة الورق المضغوط المنقوش بأبدع النقوش، ويصنعون منه صناديق للحلوى وأطقماً "للتواليت" ومصابيح وأطباقاً للزينة.

وهناك صناعات السجاجيد والفضة المشغولة وغيرها من الصناعات الدقيقة التي تشهد بالروح الفنية الدفينة في أعماق هذا الشعب الرقيق الحال الذي يعيش في وادي كشمير السعيد كما يسمونه.

ومع ذلك فإن أهل كشمير يعدون أفقر أهل الهند على الإطلاق، وقد قدر دخل الفرد من الفلاحين بما يعادل ثمانين قرشاً مصرياً في العام كله، أي نحو ستة قروش في الشهر!

ويرجع تاريخ كشمير إلى أقدم العصور، ولها صفحات مجيدة سجلت في كتاب قديم يسمى "راج تاراني" يرجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل ميلاد المسيح.

وقد وقعت كشمير فترة قصيرة تحت حكم الدولة البوذية أيام ازدهارها على عهد "أشوكا"، ثم عادت سريعاً إلى حكم البراهمة حتى فتحها المسلمون سنة ١٣١٥ميلادية، وتعاقب على حكمها الباتان والمغول والأفغان، ثم غزاها السيخ على يد رانجيت سنج سنة ١٨١٩، ثم انتقل الحكم في سنة ١٨٤٦. إلى أيدي أسرة دوجرا الهندوكية التي ينحدر منها المهراجا الحالي.

وهنا يذكر التاريخ للاستعمار البريطاني أحلك صفحاته كيف بيعت كشمير كلها، بأهلها وساكنيها، إلى هذه الأسرة الهندوكية بثمن بخس تسلمه الإنجليز من رأسها (غولاب سنج) في مقابل تسليم البلاد إليه، وكان هذا الثمن هو ٧.٥٠٠.٠٠٠ روبية أي نحو ٦٠٠ ألف جنيه!

وقد بدأت الحركة الوطنية الحديثة في كشمير منذ سبعة عشر عاماً لا تزيد، وكانت في الواقع ثمرة من ثمار حركة العصيان المدني الجبارة التي أعلنها غاندي، زعيم الهند، في سنة ١٩٣١، فلم يكد صدى هذه الحركة يتردد بين جنبات الوادي الأخضر حتى التهبت صدور الشبان حماسة، فألفوا المظاهرات الوطنية، وكان جزاؤهم العاجل أن أعلنت حالة الطوارئ وطبقت القوانين الاستثنائية وجرى من أعمال التعذيب والتنكيل ما تقشعر له الأبدان.

ولكن أدوات القمع لا تكفي لخنق الحرية، بل تزيد نارها اشتعالاً. فلم يكن عجيباً أن تعلن في العام التالي عام ١٩٣٢ تأليف هيئة سياسية باسم هيئة المؤتمر الإسلامي في جامو وكشمير برئاسة الشيخ مُحَمَّد عبدالله الذي قال في أول خطاب له إذ ذاك:

"لقد نصبنا أنفسنا للدفاع عن حقوق الطوائف كلها. وإنه ليستحيل على بلادنا أن تتقدم إذا لم توطد العلاقات بين مختلف الطوائف. ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا تعلمت كل طائفة كيف تحترم وجهة نظر الطائفة الأخرى".

ولم يلبث الشيخ عبد الله في العام التالي أن خطا نحو هذه الغاية خطوة عملية موفقة، إذ ألف لجنة فرعية لكسب تأييد الهندوس والسيخ ودعوتهم للانضمام إلى المؤتمر. باعتباره هيئة وطنية سياسية رغم تسميته الطائفية. فلما تحققت له هذه الغاية النبيلة، وبدا له تضامن المسلمين والهندوكيين على أروع صورة، دعاهم جميعاً إلى القيام بعصيان مدني على منهاج الزعيم غاندي، فقابلت الحكومة الاستبدادية هذه الحركة بمثل ما قابلت به الحركة الأولى من وسائل البطش والقمع استناداً إلى القوانين الاستثنائية.

وكانت الحكومة الإنجليزية قد أوفدت إلى كشمير لجنة تسمى "لجنة جلاتسي للإصلاح الدستوري" فهالها ما يسود البلاد من حكم ديكتاتوري مطلق، ووضعت تقريراً طلبت فيه اتخاذ خطوات سريعة لمعالجة الموقف. واضطر المهراجا عندئذ فقط إلى تأليف جمعية تشريعية من ٧٥ عضواً لا ينتخب منهم سوى ٣٣ والباقون يعينون! ومع ذلك فقد أعطى أعضاء الجمعية حق تقديم الأسئلة واتخاذ القرارات وتقديم مشروعات القوانين، ومناقشة الميزانية. وكان أهم من هذا كله إصرار اللجنة الإنجليزية على منح الصحافة حريتها على النحو الذي كان مباحاً للصحف الهندية تحت الحكم البريطاني.

ولما أجريت انتخابات الجمعية التشريعية فاز فيها المؤتمر الإسلامي بأكبر مجموع من الأصوات نالته أية هيئة في الجمعية. فأتيح له بذلك أن

يواصل كفاحه داخل الجمعية كما كان يكافح خارجها. وكان يطالب بتعديل نظام الجمعية بحيث تكون أغلبيتها من ممثلي الشعب لا ممثلي الحكومة.

وفي سنة ١٩٣٦ أعلن المؤتمر للمرة الأولى أن هدفه هو قيام حكومة دستورية مسئولة في البلاد. وكان ذلك إيذانا بانضمام ألوف من المسلمين وغير المسلمين إلى صفوف المؤتمر في موجة من الحماسة الغامرة.

وفي ٢٨ يونية سنة ١٩٣٨ انعقدت اللجنة التنفيذية أو العاملة للمؤتمر الإسلامي في شريناجار، ودامت مناقشاتها ٥٢ ساعة أصدرت على إثرها اقتراحاً قدمته للهيئة العامة يقضي بالسماح لجميع أفراد الشعب بالانضمام إلى عضوية المؤتمر بغض النظر عن طبقاتهم وطوائفهم ومذاهبهم.

وفي الساعات الأولى من صباح يوم ١١ يونيو سنة ١٩٣٩ اختفى اسم "المؤتمر الإسلامي" وحل محله اسم جديد هو "المؤتمر الوطني في جامو وكشمير"، وانتخب لرئاسة تلك الدورة مجاهد قديم من زملاء الشيخ مُحَمَّد عبد الله في الحركة الوطنية (وفي الوزارة الآن) هو السيد غلام مُحَمَّد صديق فألقى خطاباً قال فيه:

"إن هذا اليوم سيكتب بأضخم الحروف في تاريخ النهضة الوطنية في جامو وكشمير".

ومن ذلك اليوم بدأ كفاح المؤتمر يتخذ طابعاً من الحركة الدائمة، والمد والجزر، ومواجهة العواصف والأعاصير كأية هيئة تنصب نفسها للكفاح الوطني الشاق.

فلما كانت سنة ١٩٤٤ طلع المؤتمر ببرنامجه الاشتراكي الجبار الذي

حدده وفصله في نشرة رسمية سماها "كشمير الجديدة"، ويلخص هذا البرنامج في إقامة حكومة ديمقراطية مسئولة، تكون وسيلة لغاية مثلى هي تحرير الشعب من جميع صور الاستغلال الاقتصادي.

وفي سنة ١٩٤٥ عقد المؤتمر الوطني في كشمير دورة تاريخية في سوبور حضرها لفيف من زعماء حزب المؤتمر الوطني في الهند، على رأسهم الانديت نهرو ومولانا أبو الكلام آزاد وخان عبد الغفار خان (غاندي الحدود). وكان للروح الودية التي أبداها زعماء المؤتمر الهندي نحو الحركة الوطنية في كشمير صدى بعيد الأثر في نفوس أهل كشمير.

ونعود خطوة قصيرة إلى الوراء لنذكر أن مهراجا كشمير كان قد طلب أن يُضم إلى هيئة الوزارة اثنان من أعضاء الجمعية التشريعية المنتخبين، فاختار المؤتمر الوطني السيد مُحَمَّد أفضل بيج (وزير الاقتصاد الآن). ولكن السيد بيج وجد الطريق غير ممهد لتنفيذ شيء من البرنامج الاقتصادي الذي وضعه المؤتمر لكشمير الجديدة، كما قام بينه وبين رئيس الوزراء خلاف دستوري حاد، فاستقال الوزير في ١٧ مارس سنة ١٩٤٦ ولم يلبث المؤتمر الوطني أن قدم إلى اللجنة الوزارية البريطانية مذكرة جاء فيها:

"إن المطلب الوطني لأهل كشمير اليوم لم يعد مجرد المطالبة بحكومة مسئولة، بل حقهم في التحرر التام من حكم بيت دوجرا الأوتوقراطي"!

وقد آثار المؤتمر في مذكرته الخطيرة مدى صحة معاهدة أمريتسار (١٨٤٦) التي باعت الحكومة البريطانية بمقتضاها بلاد كشمير إلى جد دوجرا في مقابل سبعة ملايين روبية ونصف مليون!

وهكذا ظهر الشعار المشهور "غادر كشمير"، الذي تحدى بمقتضاه الشيخ عبد الله ومن ورائه المؤتمر الوطني مهراجا كشمير، وطالب كما لا يزال يطالب بنزوله عن عرشه الذي ليس له فيه حق، إذ اشتراه أجداده من الإنجليز على النحو الذي أسلفناه.

وفي ٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ غادر الشيخ عبد الله شريناجار ليقابل البانديت نهرو في دلهي، فألقي القبض عليه في الطريق على مسافة مائة ميل من المدينة، وأعلن الحكم العرفي في البلاد في اليوم التالي.

وكانت النتيجة المحتومة أن سالت الدماء وانتشر الاضطراب وراح جنود المهراجا يطلقون النار على الأهلين بغير حساب، ويأمرونهم بأن يسيروا على قدم واحدة هاتفين بحياة المهراجا بهادور، ويرغمون الشيوخ والأعيان على الزحف على بطونهم والبنادق مسددة إلى رؤوسهم، ويجمعون المحامين والأساتذة بل وموظفي الحكومة ليسخروهم في ملء الخنادق وكنس الشوارع.

وقد أذاع البانديت نهرو بياناً للصحف عن حوادث كشمير عقب القبض على الشيخ عبد الله قال فيه:

"إن شربناجار تكاد تكون مدينة للموتى حيث لا حركة ولا حياة، وقد زج عدة مئات من الناس في السجون، وأصبحت المصادمات تتكرر يومياً، ويطلق الرصاص على النساء. ولكن ما هو شر وأنكى هو المحاولات المقصودة لإذلال آدمية الناس على نحو يعيد إلى الأذهان أيام الحكم العرفي في البنجاب سنة ١٩١٩".

وفي ٣ يونية بدأت محاكمة الشيخ عبد الله، ثم أجلت إلى ١١ يونية بناء على طلبه حتى يتصل بالمحامين عنه لإعداد دفاعه ثم أجلت المحاكمة مرة أخرى، فأرسل البانديت نهرو إلى رئيس وزراء كشمير البانديت رام كاك برقية قال فيها:

"علمت من الصحف بمحاكمة الشيخ عبد الله وآخرين. أريد أن أتولى إعداد الدفاع عنه. أطلب جميع التسهيلات مع الوقت الكافي لذلك".

فرد عليه رئيس الوزراء بأن زيارته "لن تحدث سوى مضاعفات للموقف"، فأرسل نهرو يقول: "لا يمكن أن يسود السلام كشمير إذا لم يفرج عن الشيخ عبد الله".

ولم ينتظر نهرو تصريح السلطات في كشمير، بل غادر دلهي إلى شريناجار ليتولى الدفاع عن الشيخ عبد الله بنفسه.

وإذا بحكومة المهراجا تقبض على نهرو في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ٢٠ يونية ١٩٤٦، ولكنها تخشى مغبة إبقائه في الاعتقال فتبادر إلى إعادته للهند. وكان لهذا الحادث دوي شديد داخل كشمير وخارجها. وقبض في شريناجار وحدها على أكثر من ١٧٠٠ شخص، وتكررت الاضطرابات والمصادمات.

وفي سبتمبر سنة ١٩٤٦ تمت المحاكمة، وحكم على الشيخ عبد الله بالسجن تسع سنوات وغرامة ١٥٠٠ روبية بتهمة التحريض على الثورة.

وفي سنة ١٩٤٧ قصد المهاتما غاندي إلى كشمير في أول زيارة لها، وحاول رئيس الوزراء أن يحول بينه وبين الاجتماع بالمهراجا فلم يفلح.

وكانت نتيجة الاجتماع أن أعفي رئيس الوزراء من منصبه.

وبعد عودة غاندي إلى الهند أدلى بالتصريح التالي في أغسطس سنة ١٩٤٧:

"إن الأغلبية العظمى من سكان كشمير مسلمون، وقد أشعل الشيخ صاحب (تعظيماً لشيخ عبد الله) نيران الوطنية في قلوب الكشميريين، وأهل كشمير يتكلمون لغة واحدة ولهم ثقافة واحدة وهم على ما أرى شعب واحد، وقد كان من العسير عليَّ أن أفرق لأول وهلة بين الكشميري الهندوكي والكشميري المسلم. وقد تعذر عليَّ حين قابلت جمعاً كبيراً منهم أن أعرف هل كانت أغلبية هذا الجمع من المسلمين أو الهندوكيين.

إنني لا أتردد في الجهر بأن إرادة أهل كشمير هي القانون الأعلى في كشمير وجامو.

أما معاهدة أمريتسار فقد كانت في الحقيقة وثيقة بيع، إنني –دون حاجة إلى الخوض في دقائق القانون– أحس أن الإدراك السليم يحتم أن تكون مشيئة الكشميريين هي الكلمة الفاصلة في تقرير مصير كشمير وجامو".

وجاء تقسيم الهند في ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ فأشعل نيران الكراهية الطائفية في أنحاء الهند، وكان إيذاناً بوقوع المذابح المروعة التي ذهب ضحيتها مئات الألوف من المسلمين والهندوكيين والسيخ. واضطر مهراجا كشمير تحت ضغط الحوادث والرأي العام إلى إصدار أمر بالإفراج

عن الشيخ مُحَّد عبد الله في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧، فكانت لهذا الانتصار الشعبي ضد حكومة كشمير المستبدة رنة فرح ونشوة طرب تجلتا في مئات المظاهرات التي قامت، والاجتماعات التي عقدت والقرارات التي اتخذت بالالتفاف حول الشيخ عبد الله وزملائه المجاهدين ضد العبودية والطغيان، وكان على الشيخ مُحَّد عبد الله أن يواجه في الحال مسألة المسائل في ذلك الحين؛ إذ كان على كشمير كإحدى الولايات المستقلة أن تختار بين أوضاع ثلاثة: فإما أن تنضم إلى الهند، وإما أن تنضم إلى الباكستان، وإما أن تبقى مستقلة بذاتها فلا تنضم إلى هذا الجانب أو ذاك وقد تطلع الشعب، بطبيعة الحال إلى زعيمه يستهديه، ويستلهمه الرأي.

إن أغلبية سكان كشمير من المسلمين، هذا حق، وقد يكون أقرب إلى المنطق أن يختار هؤلاء السكان الانضمام إلى الباكستان الملاصقة لحدودهم كالهند سواء بسواء.

ولكن الحقيقة المرة كانت تصدم هؤلاء المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عبد الله، وهي أن كشمير مدينة للهند والمؤتمر الوطني الهندي وزعمائه غاندي ونهرو وأبو الكلام وغيرهم بالفضل في تأييد الحركة الوطنية في كشمير ضد المهراجا الهندوكي المستبد، وقد وقف زعماء الهند إلى جانب الشعب الكشميري نهاراً جهاراً في جهاده الشاق، وارتدى نهرو "روب" المحاماة الذي كان قد خلعه سنوات طويلة، لكي يتحدى حكومة المهراجا، ويسافر بنفسه إلى كشمير ويتولى الدفاع عن الشيخ عبد الله، فلما حاولت الحكومة منعه تحداها وسافر فعلاً، وقبض عليه وأعيد بالقوة إلى الهند.

فهل يستطيع شعب كشمير وزعماؤه أن ينسوا هذا كله ويتجاهلوه في مثل غمضة العين، ويقرروا الانفصال النهائي عن الهند، ويقلبوا لزعمائها ظهر المجن، ويلقوا بأنفسهم في أحضان الباكستان والرابطة الإسلامية (مسلم ليج) لمجرد أنهم مسلمون؟!

وهل يستطيع شعب كشمير وزعماؤه أن يتخذوا قراراً كهذا رغم موقف العداء الذي اتخذه زعماء الباكستان وفي مقدمتهم المرحوم مُحَمَّد علي جنه ضد الشيخ عبد الله وزملائه، ورغم وقوفهم بمعزل عن الحركة الوطنية في كشمير وتنديد المؤتمر الإسلامي في كشمير بتلك الحركة واتهام أهدافها وأصحابها بمختلف التهم؟!

لقد كان الطريق في الواقع واضحاً أمام الشيخ عبد الله لو أراد الاختيار في الحال، ولكنه آثر التروي والاعتدال. فلندعه يتولى بنفسه شرح الموقف:

"إنه ليسرني أن أقول إننا طوال جهادنا للوصول إلى حق الشعب في تقرير مصيره، أثناء حركة (غادر كشمير) وبعدها، كنا نلاقي تأييداً حاراً من زعماء المؤتمر الوطني (الهندي) الذين كانوا يهدفون أيضاً إلى تقرير هذا الحق، ولكن زعماء الرابطة الإسلامية (مسلم ليج) كانوا على العكس من ذلك راغبين عن تأييد حق شعبنا في تقرير مصيره وكانوا يحتجون بأن المشروع البريطاني، فيما يتعلق بالولايات المستقلة، يجعل إرادة الأمراء هي الفيصل في الموضوع، وكانت سياسة الرابطة الإسلامية في هذا الصدد مسئولة إلى حد غير قليل عن استمرار عبوديتنا، وقد حاولت أن أستميل

زعماء الرابطة الإسلامية إلى وجهة نظرنا وهي ترك الأمر لإرادة الشعب، فأوفدت أحد زملائي إلى لاهور لإقناع زعماء الرابطة الإسلامية بعدالة مطلبنا. وقد قلنا لهم بصراحة إنه فيما يتعلق بقرار الانضمام، يطلب شعب ولاية جامو وكشمير حريته في استخدام حقه الديمقراطي في تقرير مصيره. وطلبنا إليهم أن يمنحونا مهلة لنقرر بأنفسنا ما يعود علينا من المزايا والأضرار باختيار أحد الطرق الثلاثة التي نرى اختيار أحدها، وقلنا لهم إنه ليس من الإنصاف مطالبتنا بالانضمام إلى إحدى الدولتين بينما البلاد غارقة في غمار الاضطراب الطائفي. وقد ناشدناهم باسم الحرية التي تنادي الباكستان بأنها تهدف إليها، أن يؤيدوا مطلبنا في الحرية".

وقد ألقى الشيخ عبد الله في ٥ أكتوبر خطاباً عاماً في شريناجار أعلن فيه أنه سيرفع علم الثورة، ويدعو الشعب للنصر أو القبر إذا تخطت حكومة المهراجا إرادة الشعب واتخذت قراراً بالانضمام إلى الهند أو الباكستان.

ولما أخفقت المحاولة الأولى في إقناع الباكستان، عاد الشيخ عبد الله فأوفد الرسول مرة أخرى لباحثة زعماء الباكستان. وبينما المباحثات مستمرة، ومندوب الشيخ عبد الله يجادل بالحجة والمنطق في لاهور مع رجال الرابطة الإسلامية، إذا بقوات من القبائل تجتاز أرض الباكستان مسلحة أحدث تسليح ومزودة بكل ما تحتاج إليه من ذخيرة وعتاد وتهاجم مدينتي مظفر آباد وبوري داخل حدود كشمير، في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٧.

وفي هذا يقول الشيخ مُحَمَّد عبد الله:

"وقد كان هذا هو رد الباكستان على الجهود التي بذلناها للوصول إلى تفاهم ودي معها".

وكان مهراجا كشمير قد استدعى قبيل هذا الغزو قاضياً سابقاً من البنجاب اسمه مستر ماهاجان، وأسند إليه رئاسة الوزارة ، فألفها على مسئوليته وحده بعد أن رفض الشيخ عبد الله كل تعاون معه في الحكم لأنه غريب على كشمير وشعب كشمير، ولم يكد ماهاجان يتولى مقاليد الوزارة حتى صرح في أول مؤتمر صحفي له، بأن كشمير لم تنضج بعد الحكم الشعبي، وأنه لن يسمح بقيامه قط في كشمير، وأن مهمة إعداد أهل كشمير لهذا النوع من الحكم تحتاج إلى وقت طويل. فلما هاجمت القبائل حدود كشمير على النحو الذي ذكرناه، أعلن ماهاجان أن جيوش دوجرا (أسرة المهراجا) قادرة على رد العدو على أعقابه وسحقه في خلال أسبوع!

ولكن الذي حدث كان شيئاً آخر يختلف عن هذا الكلام الأجوف؛ ففي خلال أيام كان إقليم مظفر آباد قد وقع كله في أيدي الغزاة كما وقعت في أيديهم مدينة جاري ثم برامولا، وأصبح العدو على أبواب العاصمة الصيفية شربناجار.

وهنا تطورت الحوادث على نحو لم يسبق له مثيل؛ فقد هرب المهراجا بجلده ومعه رئيس وزرائه، وترك العاصمة الشمالية منحدراً إلى العاصمة الثانية جامو طلباً للسلامة، تاركين شريناجار تواجه مصيرها المنتظر بلا حكومة ولا إدارة ولا جيش ولا نظام!

وفي هذه اللحظة ثبت الشيخ مُحَّد عبد الله وزملاؤه، وراحوا يلهبون حماس أهل المدينة لإنقاذ كرامتهم واستقلالهم من الغزاة وعهدوا بمهمة الدفاع عن المدينة إلى فرق منظمة من المتطوعين رجالاً ونساء، تحت راية المؤتمر الوطني، وتحت إشراف الشيخ عبد الله نفسه.

واستنجد زعيم كشمير المناضل بصديقه ومواطنه زعيم الهند ورئيس وزرائها نهرو، فجاءت النجدة العاجلة في صورة طائرات حربية ضخمة تحمل الرجال والذخيرة إلى الميدان على أبواب كشمير في ٢٧ أكتوبر، أي بعد خمسة أيام من بدء الغزو المفاجئ. واضطر المهراجا في غمرة هذه الحوادث الجسيمة إلى أن يعهد برئاسة الإدارة المؤقتة في البلاد إلى الشيخ عبد الله، وأقسم الزعيم اليمين القانونية في ٣٠ أكتوبر. ولم يلبث أن ألقى خطاباً في الموظفين قال فيه:

"عليكم من الآن فصاعداً أن تجعلوا ولاءكم للشعب لا للمهراجا، وكل من يخون الشعب سيكون جزاؤه الطرد. إن مدافع القبائل المغيرة لا تستطيع إرغامنا على الانضمام إلى الباكستان، فنحن نريد أن نكون أحراراً، وسنكون أحراراً"!

ولم يلبث الغزاة أن ردوا على أعقابهم، بفضل متطوعي المؤتمر المجاهدين ونجدة الجيش الهندي وسلاح الطيران الهندي.

وفي ١١ نوفمبر وصل البانديت نهرو إلى شريناجار، وهناك ألقى خطاباً في الجماهير الحاشدة الهاتفة بحياة "شيري كشمير" أي "أسد كشمير" الشيخ عبد الله، وحياة الزائر الكريم، قال فيه:

"إنكم يا أهل كشمير قد ألقيتم درساً نموذجياً على شعب الهند، فقد بيَّن (شيري كشمير) لسائر أنحاء الهند وللعالم أجمع كيف تتحقق الحرية والوحدة الطائفية".

وقد حدث على إثر فرار المهراجا من شريناجار أن أرسل هو من ناحيته والشيخ عبد الله من ناحية أخرى برقيات إلى حكومة الهند تتضمن إعلان انضمام كشمير إلى الاتحاد الهندي، ومطالبة الهند بإرسال نجداتها طبقاً لهذا القرار.

ولكن حكومة الهند قررت أن تلبي داعي النجدة بلا تردد ولا إمهال، أما قرار الانضمام فقد اعتبرته قراراً مبدئياً تقبله عن طيب خاطر، على شرط أن يقره شعب كشمير فيما بعد، حين يرتد العدو، وتستقر الأحوال.

وبادرت الهند في الوقت نفسه إلى تقديم شكوى ضد الباكستان متهمة إياها بتحريض القبائل ومساعدتها في العدوان على كشمير. وسافر الشيخ مُحَّد عبد الله إلى هيئة الأمم، حيث ألقى خطاباً مستفيضاً أمام مجلس الأمن جاء فيه:

"أعتقد أن مجلس الأمن يوافق على أنني ربما كنت الشخص الوحيد الذي يعنيه الخلاف الحالي أكثر من أي شخص سواه، لأنني حضرت إليكم من البلد الذي أصبح موضع النزاع بين الدولتين الشقيقتين الهند وباكستان.

لقد أفاض كلا الطرفين في اقتباس أقوالي وتصريحاتي، ولهما في ذلك كل الحق، فقد كان من حسن حظي أن أقود أبناء وطني في جهادهم للحرية

منذ سنة ١٩٣١. وقد عانيت في سبيل ذلك الشيء الكثير، وألقي بي في السجن لا مرة ولا مرتين بل سبع مرات، كانت الأخيرة منها بمقتضى حكم يقضي بحبسي تسع سنوات".

واستطرد الشيخ عبد الله فشرح الظروف التي أفرج عنه فيها، هو وأنصاره، تحت ضغط الحوادث التي أقلقت الأقلية في كشمير بوجه خاص، ثم ذكر كيف رأى ضرورة حصول الشعب على حريته قبل اختيار الانضمام إلى الهند أو الباكستان، وكيف قبلت الهند ذلك ورفضته الباكستان.

ثم قال:

"يقولون إن الشيخ عبد الله صديق البانديت نهرو، نعم، إني أقرر ذلك. وإني لأحس بالفخر لأن رجلاً عظيماً كهذا ينشد صداقتي. ثم إنه من أبناء وطني، فهو كشميري المنبت، والدم كما يقولون أكثف من الماء، فإذا كان جواهر لال يضفي عليَّ هذا الشرف فلا يسعني أن أرفضه، إنه صديقي.

ولكن هذا لا يعني أنني بسبب هذه الصداقة يمكن أن أخون الملايين من أبناء وطني الذين شاطروني الألم طوال السنوات السبع عشرة الماضية، وأن أضحي بمصالح وطني. كلا، فلست من هذا الطراز من الرجال".

ومضى الشيخ عبد الله فأوضح وجهة نظره بضرورة إجراء استفتاء للشعب بعد أن يظفر بحريته. وفند النظرية القائلة بتنحيته هو عن الحكم ما دام قد أبدى هذا الرأي فقال: "لقد سبق أن بينت لأعضاء هذا المجلس (مجلس الأمن) أن الشيخ عبد الله يتولى منصبه الحالي لأن الشعب يريد

ذلك. وما دامت هذه إرادة الشعب فإنني سأظل في مكاني، ولا توجد قوة في الأرض تستطيع أن تنحيني عنه طالما كان الشعب من ورائي، أما إذا نزع الشعب ثقته مني فلن أبقى في منصبي".

وكان الطلب الوحيد الذي طلبته الهند هو إيفاد لجنة تحقيق دولية لترى بنفسها كيف انتُهكت حدود كشمير وتقدر مسئولية الباكستان عما حدث.

وقد أصدر مجلس الأمن بالفعل قراراً بتأليف هذه اللجنة، وعين لرئاستها الأميرال نيمتز القائد البحري السابق للأسطول الأمريكي. ثم تدخل الرئيس ترومان ومستر أتلي في أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٤،، وناشد كلاً من الهند والباكستان أن يعتبرا مهمة اللجنة غير قاصرة على التحقيق، بل تصبح أيضاً لجنة توفيق ووساطة لحل الخلاف القائم حول مصير كشمير، ولكن الهند رفضت هذا الاتجاه.

أما الشيخ عبد الله فقد رد على ذلك بتوكيد انضمام كشمير إلى الهند.

وقد مر الشيخ عبد الله بمصر في ٩ ديسمبر الماضي، في طريقه إلى أمريكا لحضور المناقشة في قضية كشمير أمام هيئة الأمم.

خواطر متناثرة في سطور

* استغرقت رحلتنا الأولى بالبحر إلى بمباي في سنة ١٩٣٩. ٩ أيام، بينما استغرقت رحلتنا الثانية من القاهرة إلى بمباي رأساً بالطائرة ٩ ساعات..

* سافرت في المرة الأولى على إحدى بواخر شركة "بي أند أو" وهي إنجليزية، وسافرنا في المرة الثانية على إحدى طائرات شركة "إير إنديا إنترناشنال" وهي هندية يملكها المليونير الهندي المعروف تاتا، وهو يملك عدا شركة الطيران المذكورة، أكبر مصانع النسيج، وأكبر مصانع الصلب، وأكبر مصانع الصابون والعطور، وهو يقوم الآن بمشروعات ضخمة لصنع القطارات وجميع أجزاء الطائرات في الهند. وهو من طائفة البارسي، عباد النار. كما يعد من أكبر المحسنين في الهند. وقد أنشأ على حسابه الخاص معهداً للأبحاث العلمية ينفق عليه بسخاء، ويستخدم فيه طائفة من أكبر علماء الهند.

* كانت رحلتي الأولى سياسية، كعضو وسكرتير لبعثة الوفد إلى المؤتمر الوطني في الهند، وكان يرأس البعثة المرحوم بسيوني بك وأعضاؤها هم الأساتذة محمود أبو الفتح وأحمد حمزة وكاتب هذه السطور.

وكانت الرحلة الثانية صحفية ضمن بعثة مؤلفة من الأساتذة الزملاء: أحمد أبو الفتح رئيس تحرير المصري، وإحسان عبد القدوس رئيس تحرير روز اليوسف، وصلاح عبد الجيد عن مجلة النداء، وزكريا الشربيني عن

جريدة الأهرام، وعبد الحميد الحديدي عن الإذاعة المصرية، وكاتب هذه السطور عن أخبار اليوم وآخر ساعة.

* كان يمثل مصر في الهند سنة **١٩٣٩** قنصل في بمباي هو الأستاذ صادق أبو خضره وهو موظف بوزارة الخارجية الآن، بينما كان يمثلها في زيارتنا الأخيرة سفير هو سعادة الأستاذ إسماعيل كامل بك يعاونه نخبة من شباب السلك السياسي اللامعين أذكر منهم الأساتذة: سميكة بك مستشار السفارة، وصلاح الدين العبد الملحق التجاري، وعزيز شكري الملحق السياسي. كما يمثل مصر في بمباي قنصل شاب هو الأستاذ مصطفى السعدني. وقد لمسنا تقديراً صادقاً ومحبة عميقة لهم في نفوس الهنود على اختلاف طبقاتهم.

* توثقت عرى الصداقة بين السفير المصري إسماعيل كامل بك وبين رئيس حكومة الهند وزعيمها البانديت نهرو وأسرته.

وقد أخبرتني السيدة كريشناهايتسنج شقيقة نهرو أنها كانت سعيدة كل السعادة عندما كلفها سفيرنا بأن تقوم بدور المضيفة في إحدى حفلات السفارة المصرية التي دعي إليها أكبر الشخصيات الهندية ورجال السلك السياسي الأجنبي، وكانت تتأبط ذراع السفير المصري كما لو كانت السيدة الأولى في السفارة، نظراً لأن السفير وجميع رجال المفوضية عزاب، وهي ظاهرة لفت نظرنا إليها عدد من كبار الشخصيات الهندية من قبيل المصادفات الطريفة.

* صادف وجود البعثة الصحفية في الهند، وجود بعثة إنجليزية من

رجال الصحافة وعلى رأسها اللورد ليتون وبين أعضائها مستر تشانسلور مدير شركة روتر ومستر كول المحرر بها، وذلك بمناسبة تحويل فرع شركة روتر في الهند إلى شركة هندية أسندت رئاسة مجلس إدارتها إلى مستر ديفداس غاندي، النجل الأكبر للمهاتما غاندي وهو رئيس تحرير جريدة هندستان تيمس. وقد أصبح ديفداس من أغنى الصحفيين الهنود وهي مفارقة كبرى بين طبيعة الولد والوالد، وقد كان لغاندي ولد أصغر ادعى اعتناق الإسلام نكاية في والده ثم ارتد، وقد قال عنه والده كلمته المشهورة: "لو كان صادقاً في إسلامه لكنت أول المصفقين له، ولكنه منافق لا يزيد الإسلام شيئاً ولا ينقص الهندوكيين شيئاً"! وقد مات أثناء الحرب الأخيرة.

* دعيت لترتيل القرآن في الهند أثناء زيارتنا الصحفية مرتين؛ مرة في صومعة غاندي كجزء من الصلاة المشتركة، ومرة في كشمير أمام الشيخ مُحَمَّد عبد الله رئيس الوزراء وعدد من الوزراء.

وسمعت تلاوة رائعة لسورة الفاتحة وسورة التوحيد من أحد الهندوكيين في وردة، حيث بدأ غاندي حركته الإصلاحية الكبرى واختارها دون سواها باعتبارها قلب الهند، أي القرية التي تتوسطها تماماً.

وفي دار المؤتمر بهذه القرية النائية اتخذ المؤتمر الوطني أخطر قراراته، وبدأ غاندي صومه التاريخي مرتين، فوفد إليه مندوبو الصحف الأمريكية والأوروبية والهندية، رغم حرها اللافح وقلة وسائل الراحة فيها. وقد قضينا بهذه الدار ليلتين، وكانت من نصيبي الغرفة التي اعتاد نهرو ومولانا أبو

الكلام أن يناما فيها أثناء تلك الأوقات العصيبة.

* يعتبر الرقص الهندي نوعاً من العبادة والقصص التمثيلي، ويمارسه الراقصون والراقصات حفاة الأقدام. ويعنون عناية خاصة بحركات اليدين والعنق. ومع ذلك فقد كان هذا الرقص إلى عهد قريب وقفاً على طبقة الغواني، ثم بدأت حديثاً حركة للارتفاع به عن هذا المستوى، تتزعمها رئيسة الجمعية الثيوصوفية التي خلفت مؤسستها الإنجليزية المشهورة آني بيزانت. وقد شهدنا مشاهد راقصة في حفلة جمعت بيننا وبين بعثة روتر في مدراس، كما شاهدنا بعضها على مسرح بالمدينة.

* والأفلام السينمائية الهندية شديدة الشبه بالأفلام المصرية، ولا سيما من ناحية اعتمادها على العنصر الغنائي، والاقتباس من الأفلام الأمريكية، وتحتل الفنانات المسلمات مكانة ممتازة في دنيا السينما، ومن أشهرهن ثريا وريحانة، وسلطانة وجلنار (وهي من الوجوه الجديدة)، وهناك أيضاً عدد من الكواكب المسلمين ومخرجي الأفلام ومؤلفي الأغاني، تملأ أسماؤهم إعلانات الحوائط والصحف في كل مكان، مما يدل على أن الفن في الهند قد نجا من شرور التعصب الطائفي.

* لعل رئيس وزراء كشمير الشيخ مُحَمَّد عبد الله أو (شيخ صاحب) كما ينادونه هو أول رئيس وزراء في العالم يفتتح خطبه أمام عشرات الألوف من الجماهير بتلاوة آيات من الذكر الحكيم بطريقة

التجويد. وهو يختار على الدوام آيات الحماسة والقتال. وهو حائز لدرجة بكالوريوس في العلوم من جامعة عليكرة الإسلامية، وقد قضى نحو عشرة أعوام من حياته في السجن بسبب نشاطه السياسي، وحكم عليه آخر مرة بالسجن تسع سنوات، لم يكد يقضي منها عاماً أو نحوه حتى حدث غزو كشمير واضطر مهراجا كشمير تحت ضغط الحوادث وتحت ضغط الزعيم غاندي إلى إطلاق سراح الشيخ عبد الله وترك مقاليد الوزارة بين يديه.

ويدرك القارئ من هذه الوقائع كثيراً من أوجه الشبه بينه وبين صاحب المعالي مكرم عبيد باشا. الذي خرج من السجن إلى الوزارة في عام ١٩٤٤ والذي يجيد القرآن ويستشهد به في المناسبات. كما أن كلا الرجلين خطيب شعبي من الطراز الأول. وهم يطلقون على الشيخ عبد الله (وهو لا يرتدى العمامة كما قد يتبادر إلى الأذهان) لقب "شيري كشمير" أي "أسد كشمير".

* كان يجلس إلى جانبي في الطائرة عند سفرنا من جامو (عاصمة كشمير الشتوية) إلى شرينا جار (العاصمة الصيفية) صبي أنيق في العاشرة من عمره بالملابس الإفرنجية. وقد سألته: ما اسمك؟ فأجاب: شيخ فاروق مُحَمَّد عبد الله.

وهو نجل رئيس الوزراء، وله نجل آخر اسمه طارق، وكلاهما يتمنى أن يتم تعليمه في مصر.

* ليس من المبالغة في شيء أن يقارن المرء بين كشمير وسويسرا. ومن

أعجب ما يشاهده الزائر هناك جزائر صغيرة مستطيلة متجاورة في وسط البحيرات، يسمونها "الجزائر العائمة"، وهي عائمة فعلاً رغم أنها مزروعة وكثيراً ما حدث أن عمد اللصوص إلى دق الأوتاد في الجزر وسحبها إلى مكان آخر أثناء الليل، بما عليها من محصول.

* قابلنا نظام حيدر آباد في قصره بناء على موعد حصل عليه الجنرال تشودري حاكم حيدر آباد العسكري. وهو شاب في الأربعين من عمره. ويعتبر أصغر جنرال في الجيش الهندي وقد خاض معركة العلمين. وروى لي كيف أعلن راديو لندن قبيل المعركة أن القوات البريطانية مصطفة على أهبة الاستعداد للهجوم، فرق له أحد ضباط جنوب أفريقيا مندهشاً لأن القوات التي اصطفت للهجوم كانت من جنود نيوزيلندا وأستراليا والهند وجنوب أفريقيا، ولم يكن بينها جندي إنجليزي واحد!

* أخطأ بعض الزملاء شخصية نظام حيدر آباد حينما نزلنا من السيارة إلى درج السلاملك الداخلي مباشرة فوجدناه واقفاً على السلم يستقبلنا إلى جانبه الجنرال تشودري الذي كان على رأس الجيش الهندي الذي هزم قوات النظام. وقد استبعد الزملاء أن يكون الواقف هو النظام نفسه، نظراً لقلة هندامه وقدم طربوشه وخلو يديه وملابسه من أية زينة.

* قدمت للنظام مصحفاً صغيراً وقدم له زميلي الأستاذ أحمد أبو الفتح مصحفاً آخر هدية منا. فتقبلهما باسماً راضياً، ثم قال لأحد

الخدم شيئاً باللغة الأوردية، فحسبناه يطلب قهوة أو شراباً لتحيتنا، ثم تبين أنه طلب إدارة المروحة التي في السقف، وانصرفنا بعد المقابلة دون أن يقدم لنا شيء على الإطلاق!

ومما يُذكر أن نظام حيدر آباد لا يستقبل أحداً من أهل البلاد دون أن يقدم إلى سموه قطعة ذهبية يسمونها أشرفية، وهي تعادل نحو عشرة جنيهات.

* لمصر في نفوس الهنود وفي مخيلتهم صورة ساحرة، وهم يتحدثون عن عظمتها وآثارها وجمالها وتاريخها بحماسة مؤثرة ويتمنون زيارتها كحلم من أحلام العمر. وإن معلوماتهم عن مصر الحديثة ومشاكلها تافهة إلى أقصى حد.

ومع ذلك فإن مندوب وزارة الاستعلامات الذي عهد إليه بمرافقتنا في بمباي كان يقارن أثناء تجوالنا بين بعض أنحاء المدينة وبين القاهرة، فيقول هذا الشارع يشبه شارع سليمان باشا، وهذا مثل شارع فؤاد الأول. فلما سألته كم مرة زار مصر، قال إنه لم يرها قط، ولكنه لفرط محبته لها جعل هوايته جمع الصور والمعلومات عنها أينما كان، حتى حفظ شوارعها وأعلامها عن ظهر قلب!

* الدعاية الصهيونية متفوقة تفوقاً ساحقاً على الدعاية العربية التي تكاد تكون معدومة الأثر في الهند. وقد كان أول ما طالعني عند هبوطنا ليلاً في مطار بمباي مجلة اسمها "الهند وإسرائيل" محشوة بصنوف الدعاية الصهيونية والتشهير بمصر وسائر البلاد العربية.

وهناك جريدة يومية من أكبر صحف الهند التي تصدر بالإنجليزية اسمها "ستيتسمان" تملكها يهودية غنية اسمها ليدي ساسون. كما أن الصحف الهندية على اختلافها بالإنجليزية وغيرها لا تنقطع يوماً واحداً عن نشر الصور والمقالات حول مختلف أنواع النشاط الاجتماعي والسياسي والرياضي في إسرائيل!

*لم نجد لدى السفارة المصرية في دلهي ولا عند القنصلية المصرية في بمباي، شيئاً يذكر أو لا يذكر، من النشرات والكتب والصور الخاصة بمصر بأية لغة من اللغات. وأدهى من ذلك أن الصحف المصرية نفسها لا تصل بانتظام، ولا في موعد مناسب، وهي تعتبر المصدر الرئيسي لأخبار مصر عند ممثلي مصر!

* تخلصت الهند في هذا العام من جميع المهراجات، لضم ولاياتهم إلى الإتحاد الهندي، وتنصيب بعضهم حكاماً دستوريين على مجموعات متحدة من تلك الولايات.

وقد دبرت حكومة الهند بعض الأعمال في السلك السياسي وغيره للفقراء من أولئك الحكام القدماء الذين كانوا يعتمدون فيما مضى على إعانات من الحكومة البريطانية.

* يرى كثيرون من المسلمين الذين في الهند، وعددهم نحو ٤٢مليوناً، أن من مصلحتهم أن ينتهي النزاع القائم حول كشمير بانضمامها إلى الهند، تخفيفاً لحدة النظرة الطائفية، ودحضا لنظرية الشعبين الهندوكي والمسلم، وهي النظرية التي تشير إلى كراهية الهندوكيين ضد

وتأييداً لهذه الفكرة يذهب كثيرون من كبار المسلمين في حيدر آباد إلى أن من الواجب أن يلتحق أكبر عدد من المسلمين بفروع حزب المؤتمر الهندي باعتبارهم وطنيين لا طائفيين.

* كان يرافقنا في رحلتنا الأخيرة السيد مُحَمَّد يونس، وهو شاب وطني متحمس من حاشية البانديت نهرو الذين يؤثرهم بثقته ومحبته. وكان ممثلاً للهند في إندونيسيا، وله صلات شخصية وثيقة بزعماء إندونيسيا. وقد أقبل يصافحني ويعانقني في شوق عند وصولنا بالطائرة إلى دلهي، فتذكرت على الفور أنه كان يرافقنا في رحلتنا الأولى إلى بشاور قبل عشر سنوات. وكان يومئذ مرافقاً للزعيم الكبير عبد الغفار خان الذي هو الآن سجين مع نجله الدكتور غني في الباكستان!

وقد عين السيد يونس أخيراً سكرتيراً أول وقائماً بأعمال السفارة الهندية في أنقرة. وقد مر بمصر منذ بضعة أسابيع في طريقه إلى مقر منصبه.

دروس الوطنية الهندية

للأستاذ محمود أبو الفتح صاحب المصري

على إثر عودتنا من الهند بعد رحلتنا الأولى، كتب صديقي وزميلي الكبير محمود بك أبو الفتح هذه الفصول القيمة الممتعة. وقد استأذنته في ضمها لهذا الكتاب. فتفضل بالموافقة مشكوراً مني، ومن جميع القراء الذين سيقدرون ما بذل فيها من جده في البحث الدقيق، بأسلوبه الممتاز الرشيق.

أحمد قاسم جودة

١

رجل ضعيف يهز إمبراطورية– أقبح رجال الهند– غرفة نومه في دار مليونير– وجوه الرجال تضيء– المتعلمون يقبلون قدمه– من طائفة جاين– ثورته على آلهة الهندوس– زوجته كاستورباي ما بين ذراعي امرأة– في جامعات لندن– يتعلم الرقص والموسيقى– وفاؤه لأمه– أراد أن يصير جنتلمان إنجليزياً فعاد هندوسياً– صلته بتولستوي– غاندي والمسيحية– غاندي والإسلام– إعجابه بسيدنا علي– إصلاحه بين المسلمين والهندوس– في جنوب إفريقيا– الثروة والشباب– التجرد من الثروة لمساعدة المظلومين.

أهذا الرجل الهزيل النحيل هو الذي يهز قوائم الدولة البريطانية ويزعزع أسس أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ منذ عهد الرومان؟

أهذا الرجل هو الذي يعلن الصيام حتى الموت فترتعد فرائص الأسد البريطاني ويقطع نائب الملك العظيم الجاه رحلته، ويعود إلى عاصمته، ليعلن أن ما يطلبه غاندي سيحقق ولو كره أمراء الهند ومهارجتها، ويستقبله في قصره المنيف عارياً إلا من قطعة قماش تغطي عورته ويجلس أمامه يباحثه ويداوله المرة بعد المرة في شئون الهند وأحوال الهنود؟!

هذا هو بعينه ألفيناه في حديقة الدار التي نزل بها في "دلهي الجديدة" على سرير من خيزران، يحيط به نفر من تلاميذه وأتباعه، ما كدنا ندخل عليه حتى وقف وقدمنا إليه جواهر لال نهرو فصافحنا وهز يدنا في حرارة

ورحب بنا في غبطة، وأخذ يتحدث إلينا يسألنا عن زعيمنا وعن بلادنا، وعن رحلتنا، ويملي علينا الرسالة القيمة التي بعثنا بها إلى "المصري" في حينها، يتخلل كل هذا ابتسامة جذابة تضيء وجهه أو نكتة ظريفة تزيده قرباً إلى قلوب من يقابلونه.

أقبح رجال الهند، وأضعفهم، وأهزلهم، متوسط القامة، ولكن هزاله المتناهي يجعله يبدو صغيراً، تقوس ظهره، هزيل الذراعين، هزيل الساقين، شاب شعر رأسه الضخم، فوق تقاطيع نابيه، فم واسع تجرد من الأسنان، وأذنان كبيرتان، وأنف ضخم، وعينان صغيرتان ولكنهما براقتان قل أن ينظر إليهما إنسان وينساهما، ومنهما تتبين الآلام والهموم والمشاغل التي تحملها هاتان الكتفان الهزيلتان، آلام الإنسانية بآسرها.

لقد مررنا في طريقنا إليه بالغرفة التي ينام فيها، فألفينا فراشه، قطعة من قماش قطني أبيض مفروشة على الأرض. لا سرير ولا آرائك، وفي جانب من الغرفة كومة صغيرة من البرتقال الذي يتغذى بعصره.

ومع هذا، فالدار التي بها قصر منيف شيده بيرلا المليونير الهندي الكبير ودعا غاندي إلى النزول فيه هذه المرة ليكون على مقربة من قصر نائب الملك، وكان غاندي قد قدم إلى "دلهي الجديدة" بدعوة من نائب الملك على إثر صيامه، وكان لا يزال ضعيف الصحة لا يستطيع التنفل الطويل، أما عادته فقد جرت على أن ينزل في كوخ صغير، في حي فقير، في دلهي القديمة.

وعارياً كما ذكرنا إلا من قطعة قماش تستر عورته استقله نائب ملك

بريطانيا وإمبراطور الهند المرء بعد المرء، وعارياً على هذا النحو استقبلته الدولة البريطانية في عاصمتها وجلس جنباً إلى جنب مع كبير وزرائها ونائبه في مؤتمر المائدة المستديرة، يباحث ممثلي حكومتها في شئون الهند.

من هو هذا الرجل؟

ما سر سلطانه على نحو أربعمائة مليون نفس في حين أنه ارتضى الفقر، وليس له من الحكم ما يجعله يعطي ويمنع؟!

ما سر قوته التي أرهبت أقوى الدول وأشدها بأساً؟

من هو هذا الرجل الذي لم تبجل الهند وتدي أرجل مثله منذ عهد بوذا حتى الآن؟

من هو هذا الرجل الذي كتب عنه الدكتور شروود دي الأمريكي يقول:

"ذهبت لأودع غاندي فوجدته في سرادقه الخاص وسرنا سوياً، ولكنني لم ألبث أن وجدت جموع الناس تلتف حوله وتزدحم. رأيت وجوه الرجال تضيء بحب لم أر مثله من قبل، رأيت النساء يرفعن أطفالهن حتى يروه. رأيت رجالاً مثقفين يغمضون عيونهم ويصلون، ورأيت بعضهم يتبركون بلمس ثوبه أو تقبيل قدمه، رأيته يسير هادئاً ساكناً مثل بوذا، على هذا الوجه الهرم رأيت نوراً لم يشرق مثله على بحر أو أرض، رأيت رجلاً يعيش في الله".

من هو غاندي؟

ولد سنة ١٨٦٩، في قرية "بورباندر" من مقاطعة، جوجيرات، وسمي موهانداس كارامشاند غاندي، وأسرته من طائفة "جاين" المعروفة بالنهي عن إيذاء كل حي، ولعل هذا من أسباب اعتناقه مبدأ عدم العنف، الذي أصبح بفضله عقيدة الهنود السياسية.

دخل مدرسة القرية فامتاز على أقرانه حتى أنه حدث أن ثار على آلهة الهندوس وأعلن ثورته إذ أكل اللحم خلافاً لأوامر دينهم، ولكن اللحم لم يلائم صحته فأقلع عنه.

تزوج في الثانية عشرة من عمره من كاستوريباي التي أخلصت له العهد في سرائه وضرائه في ثرائه وفقره في حريته وسجنه، حتى في إعراضه عن الاختلاط الجنسي، فإن غاندي مثل تولستوي، الذي عرفه وأحبه وراسله، يرى قصر الاختلاط الجنسي على مجرد الإنتاج. ومع هذا فقد كان في شبابه زير نساء، حتى إن نبأ وفاة أبيه فاجأه وهو بين ذراعي امرأة، ولكنه عاد إلى نظرية "براهما شارب" الهندية القائلة بالابتعاد عن الشهوة الجنسية. وأقنع زوجته بأن يعيشا كأخوين وهو يروي "أنه منذ ذلك الحين انقطع كل خلاف"، وقد عرفنا من أبنائه مستر ديفداس غاندي في نيودلهي وهو يشتغل بالصحافة وسجن مرات في سبيل قضية الهند.

ما تعلمه في إنجلترا

وفي الثامنة عشرة من عمره سافر إلى لندن ليدرس القانون في جامعاتها، ولم تسمح له أمه بالسفر إلا بعد أن أقسم أمام كاهن أن يتجنب

الخمر واللحم والنساء، وقد ذكر فيما كتبه عن تاريخ حياته أنه استطاع أن يبر بقسمه رغم "التحريضات الجهنمية"، وكان كلما أحس الضعف ساءل نفسه: "وبأي وجه أقابلها متى عدت؟".

والظاهر أنه أراد وهو في لندن أن يصير "جنتلمان إنجليزياً" فتأنق في ملبسه وتلقى دروساً في طرق الكلام والرقص والعزف على الكمان واللغة الفرنسية، ولكنه وجد هذا كله عبئاً ثقيلاً فأقلع عنه وعاد إلى الهند هندوسياً أكثر من ذي قبل.

وقد أقام في لندن ثلاث سنوات من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩١ تلقى فيها إلى جانب الحقوق ثلاث فكر كان لها في حياته أثر كبير وهي: الوطنية، والديمقراطية، والمسيحية.

رأى حياة الحرية التي يتمتع بها الإنجليز، وسلطاتهم على حكومتهم فتولدت عنده فكرة أن تتمتع أمته بمثل هذا الاستقلال، وقرأ ماتزيني فأضرم بين جنبيه لهيب الوطنية التي كان ذلك الوطني الإيطالي يشعر بها نحو بلاده، وطالع تورو وتعلم منه فن العصيان المدني.

وترجم أجزاء من أفلاطون وروسكن، وطالع تولستوي وما كتبه عن المقاومة السلبية وعن استنكار الاختلاط الجنسي لمجرد الشهوة لا للإنتاج، واتصل بالفيلسوف الروسي وكاتبه.

وطالع ثمانين كتاباً عن الديانة المسيحية، ولكن كتاباً واحداً ترك في نفسه أثراً، وهو "العهد الحديث"، وكان يرى أن الدعوة إلى مقابلة الشر بالخير وتجنب العنف حتى مع العدو أسمى معاني الإنسانية.

غاندي والإسلام

وكان الإسلام من أكبر العوامل أثراً في حياة غاندي، وكان أول ما اتصل بالمسلمين في جنوب أفريقيا حيث قضى عشرين عاماً، وكان كثيرون من أصدقائه وزملائه وأنصاره منهم فسهل له هذا دراسة القرآن الكريم وحياة نبينا مُحَمَّد –عليه أفضل الصلاة والسلام– وحياة خلفائه الراشدين وقادة المسلمين، ويروي صديقه المرحوم الدكتور سيد حسين الكاتب الهندي المعروف أنه قال له مرة إنه شديد الإعجاب بخلق سيدنا علي –ﷺ– وروى صديقه أندروز أنه يعجب برجولة المسلمين وشهامتهم وصدقهم.

على أنه رغم دراسته للديانتين الإسلامية والمسيحية ظل هندوكياً في عقيدته وطبيعته وفلسفته، وهو في هذا يقول: "إن ديني يعطيني كل ما يلزم لتهذيب نفسي فهو يعلمني الصلاة، ولكني أصلي وأدعو الله لكل إنسان أن يصبح المثل الأسمى في دينه، أن يزداد المسلم تمسكاً بتعاليم الإسلام فإني واثق بأن الله سيحاسبنا في يوم من الأيام عما نحن عليه وعما نعمل لا عن الاسم الذي أطلقناه على كياننا وعملنا".

ومن أقواله: "إن إلهنا جميعاً واحد، سواء وصلنا إلى إدراك وجوده عن طريق الإنجيل أو القرآن أو الجينا أو التلمود، وهو إله الحب والحق".

ولكنه رغم تدينه يضحك من لقب "المهاتما" الذي يلقبه به شعبه. ويقول إنه يرجو أن يقنع سجنه مواطنيه بأنه مجرد بشر ليست له قوات خارقة للطبيعة، ولكن غيره ممن جاءوا في الهند قبله وأصبحوا في عداد

آلهتها كانوا يقولون مثل قوله، ومن يدري بعد مئات السنين أن لا تقام نصب الألوهية وأصنامها لغاندي؟

بل لقد رأينا في أكواخ الفلاحين، بل وفي الحوانيت والمعارض صوراً لغاندي على شكل شري كريشنا، الذي يؤلهونه.

ولعل من أكبر أسباب اعتماد غاندي على الدين في حركته الوطنية أنه الأداة الوحيدة لتحريك أمة قتل فيها الاستعداد والظلم والذل طوال ألفي عام، كل عزة وطنية وكل شعور بالقومية وكل كرامة أهلية أو شخصية.

وقد كان دائماً من أشد أنصار التفاهم بين المسلمين والهندوس، فعاون المسلمين أيام حركة الخلافة، وانضم إلى مطالبهم وانضموا إلى حركة المؤتمر، وترأس بعض مؤتمراتهم وترأسوا المؤتمر الوطني الهندي العام، ولما أثمرت الدسائس ووقعت الخلافات بين المسلمين والهندوس أعلن الصيام وذهب إلى دار صديقه مولانا مُحَمَّد علي الزعيم المسلم المعروف المدفون في القدس حيث لزم الفراش ثلاثة أسابيع لا يتناول سوى الماء، وفي اليوم السادس والعشرين اجتمع عند سريره زعماء الفريقين، وأصدروا قراراً بالإجماع يرجون منه ترك الصيام في الحال ويحونونه اختيار الوسائل المؤدية إلى إزالة أسباب الخلف.

في جنوب إفريقيا

نعود إلى تتبع حياة غاندي، ففي كل مرحلة درس. رجع غاندي من دراسته في لندن سنة ١٨٩١ واستقر في بومباي واشتغل بالمحاماة، ولكنه كان مثال الإنسانية والصدق فقد كان يرفض المرافعة ضد مدين، ويحتفظ

لنفسه دائماً بحق التخلي عن قضية إذا تبين له خلال الدعوى أن موكله على غير حق. كم محامياً في العالم يعملون هذا؟!

وفي سنة ١٨٩٣ دعي لقضية في جنوب إفريقيا فذهب ونجح، وأُثري حتى تجاوز إيراده السنوي أربعة آلاف جنيه وكان شاباً فاجتمع له المال والشباب.

ولكنه وجد في جنوب إفريقيا جالية هندية كبيرة سامتها السلطات هناك أسوأ أنواع الخسف والإرهاق والاضطهاد، فطلبت إلى غاندي أن يتولى الدفاع عن حقوقها مقابل أجر كبير، فقبل الطلب ورفض الأجر، وترك حياة الترهة وكرس وقته وجهده عشرين عاماً للمظلومين في إفريقيا من قومه.

ولما وقعت حرب البوير ظن أن الإحسان يستتبع الإحسان فأنشأ وحدة للصليب الأحمر مؤلفة من ألف هندي لمساعدة جرحى الجيش الإنجليزي. ولكن جزاءه بعد ذلك كان نقض الوعود والسجن المرة بعد المرة، ولكن الحكومة انتهت في سنة ١٩١٣ بإزالة كثير من المظالم الواقعة على بني قومه.

تعليم وخطط

ثلاث كلمات أذاعها غاندي بين الهنود، هي أسس الحركة الوطنية في العشرين عاماً الماضية وهي:

١ - ساتياجراها.

٢ - أحمسا.

٣- خدار.

والأولى معناها البحث عن الحقيقة، ويقصد بها مقاومة الشر مقاومة سلبية. والثانية معناها بدون عنف. والثالثة تطلق على القماش الرخيص من القطن المغزول والمنسوج في الدور (لا في المصانع) وبالأيدي لا بالآلات.

وسنشرح للقراء في مقالنا التالي نظريات غاندي المتقدمة وما أصابها من فشل، وما أدركته من نجاح وأثرها في قضية الهند الوطنية.

٢

عودة غاندي إلى الهند- الانترم الأول- نصيحة جوخال حركة الجدار- يجب أن نعود إلى بساطتنا القديمة- هياكل عظمية- موسيقى النول- صراع بين النول ولانكشير- عشرات الملايين يستخدمون الأنوال- الوزراء والكبراء والأغنياء يلبسون الخدار- المومسات والمسجونون- أحباء الملايين- يرد على الفقراء كرامتهم- مضاعفة أجور العمال- المقاومة السلبية- الماديات والمعنويات- ما يملكه غاندي. غاندي وزوجته يهبان ثروتهما- شعار العوز- ساتيا جراها المقاومة المعنوية- كيف نجحت وكيف فشلت؟- وقف السخرة- الضرائب الظالمة- امرأة غنى فشله في الحركات السياسية- فاجعة امريتسار- البرنس أوف وايلس في الهند- الهنود يهجرون مدنهم- قتل مستقبليه وإحراق دورهم- كلكتا مدينة الأموات- إحراق العساكر.

نجاح الحركة

كان في الهند زعيم وطني كبير هو جوخال، وكان غاندي عند عودته من جنوب إفريقيا يعلل نفسه بالعمل تحت رئاسته، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى فجع فيه، فقد مات في فبراير سنة ١٩١٥.

وكان جوخال يشعر بالهمة الروحية والعزيمة الجبارة التي يختزنها جسم غاندي الضئيل، فأخذ عليه عهداً أن لا يأتي عملاً سياسياً خلال عامه الأول في الهند، بل يقضيه في سكون يرقب سير الأمور، ويتفهم الحوادث،

وله بعد ذلك أن يختط الخطة التي يشاؤها.

وقد حفظ غاندي العهد واعتكف مدة أنشأ خلالها مدرسة على مقربة من مدينة أحمد آباد يعلم فيها تلاميذه تعاليمه ومبادئه، واسم مدرسته "أشرم" ومعناها مكان النظام أو التأديب ومن مدرسته يخرج مدرسون ينتشرون في أنحاء البلاد يذيعون رسالته ويقطعون على أنفسهم عهداً أن يلزموا الصدق دائماً، وأن لا يؤذوا إنساناً أو حيواناً أو أي شيء حي، وأن يتجنبوا الشهوة الجنسية، وأن يعيشوا عيشة التقشف وأن لا يستعملوا بضائع أجنبية، وأن لا يأخذوا لأنفسهم شيئاً يمكنهم الاستغناء عنه.

ويبقى التلامذة في مدرسته يتعلمون ويطعمون مجاناً لمدة عشر سنوات، ويتناول درسهم الغزل والزراعة وأداء الأعمال الصغيرة التي تقتضيها المعيشة وبعد السنوات العشر يتخرجون معلمين ويقطعون على أنفسهم العهد الذي بسطناه.

ومن هذه المدرسة خرجت الساتياجراها والأحمسا، البحث عن الحقيقة وعدم العنف.

ويرى غاندي أنه سيجئ وقت تمتلئ فيه الهند "بأشارم" تنقذ شباب الهنود من مفاسد التعليم الحكومي وتنشئ شعباً قوامه الأخلاق.

حركة الخدار

أما حركة "الخدار"، التي نشرها غاندي في الهند فترجع إلى عوامل عدة؛ أهمها حالة الفقر المدقع التي وجد عليها قومه عند عودته من جنوب إفريقا، فقد روعته الهياكل العظيمة التي رآها في حقول الهند كما روعه

الفقر والمرض والذلة الفاشية بين أهل القرى وكان أول ما نادى به العودة إلى النول.

ومن أقواله في هذا: "يجب أن نعود تدريجياً إلى بساطتنا القديمة، إن في عملنا بأيدينا لغبطة وفي صوت دولاب النول موسيقى، كم مصنف موسيقي أدرك من طنين دورانها روح الأرض؟".

وكان يقول: "إن الصناعات الإنجليزية قضت على الصناعات المنزلية الهندية، وإن القرى مملوءة بالعطلة والفاقة بسبب ذلك ولا يعيد إليها البهجة والحياة إلا (الشاركا)– النول".

بين النول ولانكاشير

ولكن أنى للنول أن يزاحم مصنوعات لانكاشير، إلا إذا فرضت ضرائب لحمايته. والإنجليز أصحاب الرأي في أمر الضرائب ولا يمكن أن يسمحوا بتعطيل مناسج لانكاشير لتشغيل أنوال الهند المنزلية، ولا بإنقاص أرباح أصحاب المصانع الإنجليزية لإحياء ملايين بل عشرات ملايين الهنود.

ولكن هذا لم يثن غاندي فأحيا حركة سواديشي –الإنتاج القومي– إلى جانب حركة سواراج –الحكم الذاتي– وجعل معرفة الغزل والنسج لعضوية المؤتمر الوطني. وطلب من كل هندي مهما بلغت ثروته أن يلبس "الخدار".

ولم تلق دعوته ككل حركة غريبة مثلها نجاحاً كبير في بدايتها، أما الآن فقد عمت الهند حتى أصبح عشرات الملايين يشتغلون على الأنوال وأصبحت غالبية الهنود يلبسون الخدار، ادخل إلى أي بنك أجنبي أو هندي، إلى محل من محال كوك، إلى أي وزارة أو مكتب فإنك قل أن ترى

من يلبس الملابس الأوروبية، أما الباقون من وزراء تابعين للمؤتمر ومن كبراء وأغنياء وسراة ووجهاء، من رجال المؤتمر أو غير رجاله يلبسون الخدار، وهو أحط المنسوجات القطنية.

وقد شهدنا في "ريبوري" في المؤتمر الوطني العام أكثر من مائة ألف نفس يلبسونه جميعاً، فلا تكاد تميز الغني من الفقير أو الوزير من الصغير، الطلبة في المدارس يلبسون الخدار والسيدات من الأسر الكبيرة يلبسن ساريات من الخدار.

لقد وصلت دعوة غاندي إلى قلب كل هندي حتى المومسات في المواخير يغزلن وينسجن، والمسجونين في باطن السجون يغزلون وينسجون وفي كل مدينة، سبق هذا حريق كبير كانت طعمته الملابس الأجنبية.

إن حركة الخدار من أهم الحركات التي أفادت الهند، نعم إن لها ناقدين يرون أن الرجوع إلى النول رجوع إلى نصف قرن أو يزيد، ولكن غاندي يرى أن الآلات هي سبب فساد العالم وشقائه، وهي بغير شك سبب شقاء الهنود فقد قتلت الفابريقات الإنجليزية الصناعات المحلية، وتركت الملايين وعشرات الملايين في بؤس أسود يخرجون من مجاعة إلى مجاعة، لا تفنى الألوف أو مئات الألوف بل الملايين.

أما النول، فقد رد ذئب الفاقة عن أكواخ فقراء الهند، وحفظ مئات الملايين من الروبيات في جيوب أبنائها بدل انصرافها إلى أصحاب المصانع الأجنبية.

ولحركة لبس الخدار فائدة أدبية سامية، فقد سوى الفواصل البعيدة

التي كانت بين طبقات الهنود، أحيا في الفقراء –وهم سواد الأمة– كرامة غابت عنهم منذ مئات السنين فقد وجدوا كبراءهم وعظماءهم وأغنياءهم يلبسون هذا القماش الرخيص مثلهم، والخدار هو أرخص المنسوجات القطنية.

وحسن غاندي أجر العامل الفقير الذي يشتغل على النول، فقد كان يتقاضى أربع "أنات" فحتم أن يكون أجره ثماني "أنات"، لأنها أقل ما يمكن أن يعيش به عيش الكفاف، وبمعدل "أنا" لكل ساعة يعملها. والأنا تعادل خمسة مليمات.

وقد كان من نتائج ذلك أن استنبط الآليون نولاً يدوياً جديداً يساعد على مضاعفة إنتاج العامل، وبهذا لا ترهق مضاعفة الأجور أصحاب الأعمال.

المقاومة السلبية

أما فكرة "ساتياجراها" التي أذاعها غاندي والتي هي أساس الحركة الوطنية الهندية فهي أيضاً غريبة، غريبة علينا نحن الذين عشنا عيشة مادية صرفة اقترنت بالكفاف من المعنويات ولم نعش كغاندي عيشة معنوية روحية صرفة تجردت من الماديات.

نعم تجرد غاندي من الماديات فهو لا يملك من حطام الدنيا إلا ثلاث قطع من قماش "الخدار"، أما ثروته القديمة فقد وهبها لفقراء قومه، بل أقنع زوجته بأن تتجرد هي الأخرى عن ثروتها وتهبها لهم أيضاً وتعيش مثله عيش الكفاف وما يكسبه من نسجه ينفق عليهم، وقد فرض ضريبة قدرها خمس روبيات لكل من يطلب إمضاءه خصصها لمساعدة المنبوذين.

وهكذا تجرد من حطام الدنيا ومادياتها وكتب على نفسه التقشف، فلا

يكون له من ضروريات الحياة إلا في حدود ما يصل إليه أفقر مواطنيه.

ولهذا أيضاً اختار "الخدار" وهو أرخص المنسوجات؛ لأنه شعار العوز والتجرد وفاقة ملايين وملايين من قومه لا يستطيعون ارتداء خير منه.

هذا التجرد من المادة هو الذي جعل غاندي يمسك كلمته الجديدة "ساتياجراها" التي أصبحت على كل لسان في الهند، تقرؤها في الجريدة الهندية مئات المرات، وهي تقتضي متبعها أن يقاوم الضرر والشر مقاومة سلمية معنوية، وأن يكون على استعداد لدخول السجن واحتمال الألم والأذى في سبيل إزالة ذلك الشر، وأن يتبع الصدق والحق في تفكيره وقوله وعمله، وأن لا يحمل حقداً ولا ضغناً في صدره لمن يتسببون في أذاه بل وفي سجنه.

وقد أفاد هذا السلاح الأدبي الخطير عدة مرات وكانت له أدوار نجاح وفشل، نجح أولاً في مدة الحرب عندما آثره غاندي لمنع أخذ "المتطوعين" الهنود للسخرة في مزارع السكر بالمستعمرات، وكان غاندي يعرف أن عملاً كهذا في مدة الحرب سيعرضه للسجن، ولكن لورد شلسفورد نائب الملك رأى خطر حركة عصيان مدني في تلك الظروف ودعا غاندي إلى مقابلته وبعد اجتماع طويل أمر اللورد بوقف تلك السخرة.

ونجح في مقاطعة بيهار، حيث شكا القرويون لغاندي من ضرائب ظالمة، ولكنه ما كاد يعتزم السفر إليهم حتى أصدر إليه القاضي هناك أمراً بمنعه من ذلك وهدده، ولكنه عصى الأمر وواجه السجن، غير أن الحكومة استعملت الحكمة وخشيت سوء المغبة فدعته إلى لجنة فحصت الشكاوى وأقرتها وألغت الضرائب.

ونجح في حل نزاع بين العمال وأصحاب المصانع، فقد كان الأخيرون يجنون مدة الحرب أرباحاً مضاعفة مرات تطالب العمال بزيادة طفيفة في الأجور، ولكن الرأسماليين أبوا ذلك وأقفلوا المصانع واستمرت مقفلة حتى حل البؤس والشقاء بألوف الرجال والنساء وأوشكوا أن يرضخوا لحكم السادة، ولكن غاندي أعلن الصيام حتى تجاب مطالب العمال، وقد كان، فإن زوجة أحد كبار أصحاب المصانع تمكنت من إقناعهم بالرضوخ لمطالب العمال وأنقذت حياة غاندي.

ثورة سياسية

وكانت هذه الحركات الصغيرة بمثابة تجارب لتلك الوسيلة الجديدة التي أحلها غاندي محل غيرها من وسائل الجهاد في سبيل الحكم الذاتي، غير أنه ما كاد يستخدمها بتوسع في حركات سياسية كبيرة، حتى فشلت، فشلت في سنة ١٩١٩ في حركة مقاومة قوانين رولت، فشلت في سنة ١٩٢١ في بومباي عند زيارة ولي عهد إنجلترا، وفشلت في سنة ١٩٢٢ في "شاوري شاورا" ذلك أن سواد الجماهير لم يكن قد فهم مبدأ عدم العنف تمامًا، فانقلبت الحركات التي بدأت سلمية إلى حركات دموية.

زيارة ولي العهد

ومثال ذلك أنه لما حدثت فظائع آمر يتسار التي راح ضحيتها ألوف المسالمين بغير ذنب ولا جرم مهما صغر أو كبر واهتزت لهولها أرجاء الهند، بل أرجاء إنجلترا نفسها ظنت الحكومة البريطانية أنها تخفف من استنكار الهنود بإرسال ولي العهد لزيارة الهند، ولما وصل إلى بومباي في ١٧ نوفمبر

سنة ١٩٢١ كانت المدينة قد أعلنت "الهرتال" -الإضراب التام- وتركت وريث عرش الإمبراطورية العتيدة يخترق مدينة أشبه بمدن الأموات، فقد أقفرت الشوارع من الماء وأقفلت النوافذ، ولم يستقبله إلا الإنجليز وبعض التجار "البارسي" (المجوس) وما كاد الناس يسمعون بهم حتى ثاروا عليهم وأضرموا النار في دورهم وقتلوا ثلاثة وخمسين رجلاً منهم.

وكان هذا خيبة شديدة لغاندي الذي أرادها حركة لا عنف فيها، ولكنه تعزى عندما عرف أن أمير الغال لما دخل هكته وجدها مدينة أموات أخرى فقد أعلن الإضراب وكان تاماً، فأقفلت المتاجر والدور ولم ير ولي عهد إنجلترا في الشوارع إلا الجنود الذين صفوا لتحيته والموظفين الذين جمعوا لاستقباله.

وفي "شاوري شاورا" سنة ١٩٢٢حاول سبعة وعشرون من رجال البوليس أن يمنعوا موكباً وطنياً من السير فهاجمتهم الجماهير وردتهم إلى معسكرهم وأحرقته وأحرقتهم. وقد قبضت السلطات على ربع مليون نفس من أهالي المنطقة انتقاماً.

ولكن الساتياجراها -المقاومة السلمية أو عدم التعاون- التي فشلت بحسب نظرية غاندي لأن الجماهير لم تقابل الأذى والضرر بالجلد والصبر بل قابلته بالعنف، هذه الساتياجراها نفسها نجحت فيما بعد أبلغ النجاح وأتت بأعظم النتائج مما سنشرحه في مقالنا التالي عن غاندي وتعاليمه ونظرته.

٣

بين العنف والجبن– نظرية الضعف– غاندي يفقد مكانته بين الشعب– القبض عليه– محاكمته وسجنه– الحكم عليه بأقصى العقوبة– ماذا قال القاضي الإنجليزي– ماذا قال الأسقف الإنجليزي– ما هو عدم التعاون– المثل العظمى في الشجاعة والوطنية– صبي يطلب الموت في سبيل الوطن– امرأة تفتح صدرها لرصاص الجنود– أمة تبعث من القبر– نصيحة الإنجليز– المخالفون لغاندي– حركة الشباب– سوبهاس شاندرا بور– القديسون لا يصلحون للسياسة– جواهر لال نهرو بعد غاندي.

كان تحول حركات المقاومة السلبية في الظروف التي بسطناها في مقالنا السابق إلى حركات إيجابية استخدم فيها الجمهور العنف بسبب خيبة أمل غاندي وحزنه. فإنه بخلاف كثيرين من زعماء العالم لا يعد الغاية أهم من الواسطة. أو أنها تبررها في بعض الحالات. بل هو يرى أنه ما من غاية تستحق استعمال العنف لإدراكها. وأن العنف ما هو إلا مظهر من مظاهر البهيمية، أما المقاومة بدون كراهية أو إيذاء فإنها عنوان سمو الرجال ويجب أن نقول هنا إنه يفرق بين عدم العنف والجبن ويرى أنه إذا خير بين الجبن والعنف لاختار العنف دون تردد. أما عدم العنف الذي يدعو إليه فهو أن يقاوم الناس الشر والعدوان جهدهم دون عنف يقدرون عليه، وأن يأبوا في الوقت نفسه الخضوع أو الاستسلام والخنوع حتى ولو ماتوا في سبيل ذلك.

ومن أقواله: "إني أفضل استخدام العنف ألف مرة على تخنيث الشعب، إني أفضل أن أرى الهند تلجأ إلى السلاح دفاعاً عن شرفها على أن تصبح أو تبقى ضحية عاجزة متجردة من الشرف والكرامة، ولكنني أعتقد أن عدم العنف أسمى من العنف سمواً لا حد له".

إن نظرية عدم العنف قد تبدو لنا ولغيرنا في غير الهند عقيدة الضعف أو ذريعتهم، بل لها في الهند نقاد واجهوا غاندي بهذا الرأي، وكان رده: "إن البسالة في ميدان القتال مستحيلة على الهند ولكن بسالة الروح في مقدورنا. إن عدم التعاون ليس معناه إلا التدرب على إنكار الذات".

وهو يقول أيضاً: "يجب ألا يكون لنا إلا رد واحد على ضربنا وإطلاق الرصاص والقنابل علينا، ذلك الرد هو الاستمرار على رفض التعاون بأي حال من الحالات مع التجار البريطانيين أو شراء بضائع بريطانية أو التعاون مع الحكومة البريطانية".

وهذا الرجل الذي نادى بمذهب عدم التعاون وعدم العنف، لم يتردد في الدعوة إلى وقتهما عندما رأى تحول الحركة من السلب إلى الإيجاب. ومن احتمال أذى الحكومة وأنصارها إلى مقابلة الشر بالشر. وكان قرار وقف الحركة خطوة جريئة من غاندي دلت على شجاعته، إذ كان يعرف أنه يستهدف بذلك لفقد مكانته بين الشعب ولسخط الزعماء وقد كان الشعب يعتقد أنه قارب النجاح.

محاكمة غاندي

فقد هبطت فعلاً مكانة غاندي إلى أدنى درك، فانتهزت الحكومة الفرصة وقبضت عليه وقدمته للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة وكانت قبل ذلك لا تجرؤ على مد يدها إليه.

وكانت محاكمة غاندي درسًا آخر في الوطنية، كما دلت على مبلغ شجاعة الرجل وجرأته بل وعلى مكانته حتى عند خصومه.

دخل غاندي دار المحكمة مقبوضاً عليه بين جبارين من رجال البوليس، وفجأة حدث أمر لا مثيل له في دور القضاء، فقد وقف كل من في القاعة، وقفت جماهير الناس، وقف المحامون وقف رجال السلطة، وقف ممثل الاتهام، بل وقف القاضي الإنجليزي احتراماً لهذا الرجل.

ولا نظن أن قاضياً، وقاضياً إنجليزياً وقف من قبل ومن بعد، احتراماً لمتهم يجئ أمامه مقبوضاً عليه ولكنها شخصية الرجل الكبيرة.

واستمع غاندي إلى مرافعة الاتهام ولم يحاول تفنيد التهمة أو دفعها عن نفسه بل قال: "لو أطلق سراحي لفعلت ما فعلت ثانية. إنني لا أطلب رحمة، ولا أتذرع بظروف مخففة وإنما أنا هنا أطلب الحكم علي بأقصى العقوبة، وأخضع مسرورا لعقوبة على أمر يعده القانون جريمة متعمدة، وأعده أنا أسمى واجبات الإنسان نحو وطنه. إن السبيل الوحيدة التي أمامك أيها القاضي هي أن تعتزل منصبك أو تنزل بي أشد العقاب".

وقد أصدر القاضي الإنجليزي عليه حكم بالسجن ست سنوات، ولكنه أعرب عن أسفه الشديد لاضطراره لأن يرسل إلى السجن شخصاً يعده الملايين

من بني وطنه وطنياً عظيماً وزعيماً كبيراً، شخصاً يعده، حتى المخالفون له، رجلاً سامي المبادئ والأفكار، رجلاً حياته حياة نبل وقداسة.

وعلى إثر هذا الحكم قال أسقف مدراس الإنجليزي: "أعترف صراحة، ولو أحزنني هذا، بأنني أرى في مستر غاندي المعذب الصابر في سبيل قضية الحق والرحمة، أرى فيه مثالاً للمنقذ المصلوب، يعني السيد المسيح، أكثر ممن ألقوا به في غيابة السجن ومع هذا يسمون أنفسهم باسم المسيح".

وحدث أن مرض غاندي في السجن بالزائدة فأشار الطبيب الإنجليزي بإجراء عملية ولكنه تردد قائلاً: "إذا مت تحت يدي فإن كل هندي سيتهمني بقتلك"، ولكن غاندي وقع ورقة أبرأ الطبيب فيها من التهمة، وقد نجحت العملية ولما غادر غاندي المستشفى لم تعده الحكومة إلى السجن بل تركته طليقاً.

وبعد فترة قضاها معتكفاً بمدرسته في أحمد آباد دعته ظروف الحركة الوطنية، ونداء الشعب إلى دفة القيادة ثانية فلبى الدعوة ونزل إلى الميدان، وأعلن عدة مرات عدم التعاون، ودعا قومه إليه فلبوه جميعاً طائعين مرة بعدة مرة.

شروط عدم التعاون

وعدم التعاون يتطلب من منفذه:

أولاً: أن يرد جميع الألقاب والرتب والأوسمة والوظائف الفخرية، ويستقيل من الهيئات المحلية.

ثانياً: رفض حضور حفلات الحكومة واجتماعاتها، من الحفلات الرسمية أو شبه الرسمية التي يقيمها موظفو الحكومة أو تقام تكريماً لهم.

ثالثاً: سحب التلاميذ تدريجاً من المدارس والكليات التي تحت إشراف الحكومة وإنشاء مدارس وكليات أهلية في المقاطعات المختلفة.

رابعاً: مقاطعة المحامين والمتقاضين للمحاكم البريطانية تدريجاً، وإنشاء هيئات تحكيم خاصة لتسوية المشاكل الخاصة.

خامساً: رفض التطوع للخدمة العسكرية أو الكتابية أو فرق العمال.

سادساً: انسحاب الأعضاء والمرشحين من الانتخابات للمجالس والجمعيات التشريعية، وامتناع الناخبين عن الانتخابات في حالة ما إذا خالف شخص ذلك ورشح نفسه.

سابعاً: مقاطعة البضائع الأجنبية.

ثامناً: سحب الأموال الهندية من سندات الحكومة.

شجاعة الوطنيين

وقد قاد غاندي قومه في المقاومة السلبية وكسر القوانين الجائرة مثل قانون احتكار الملح وغيره، وروضهم على احتمال الأذى في سبيل ذلك وعدم المقاومة، وقد لقي الناس من فظائع البوليس الأهوال، ففي مقاطعة الحدود الشمالية أعمل في الناس قتلاً وضرباً حتى قتل مئات وجرح ألوف؛ ومع ذلك كان الناس يتلقون الرصاص بصدورهم، وكان فخر زعماء الحركة أنه قتل مئات منهم بالرصاص بدون أن يثبت أن إصابة واحدة كانت من الظهر، وفي بشاور ظهر في أجسام بعض القتلى أكثر من عشرين جرحاً

بالرصاص، وتجلت بطولة الناس وعدم اكتراثهم بالموت، حتى أن صبياً من السيخ تقدم إلى جندي وقال له: "اقتلني فإنني وهبت حياتي للوطن". فأرداه ذلك الجندي القاسي دون تردد، ورأت امرأة مسلمة عجوز أقاربها وأصدقاءها جرحى بالرصاص فتقدمت من رجال البوليس وكشفت عن صدرها صارخة: "اضربوا" فأطلقوا النار، وكان رجل آخر مسن يحمل طفلاً في الرابعة من عمره أراد البوليس رده فلم يرتد قائلاً: "لم نتعود النكوص" فلما صوبوا إليه بنادقهم قال: "اقتلوني فلن تنبت شجرة الحرية في هذا البلد إلا إذا رويت بالدماء".

كل هذا والناس يأبون التفرق، ويحتملون الأذى والموت، دون أن يردوا العدوان بالعدوان.

وفي دراسانا سارت الجموع نحو مواضع الملح لتأخذ حاجتها منه احتجاجا على قانون احتكاره، فحاول الجنود بقيادة ضباط إنجليز صدهم فلم يرجعوا، وكان الجنود يحملون نبابيت في أطرافها قطع الفولاذ نزلوا بها على صفوف المتقدمين ليمنعوهم من التقدم، فلم يمتنعوا واحتملوا الضرب حتى سقطوا مغمى عليهم من الضربات، وتقدم صف رجال يحمل النقالات لنقل المصابين وتقدمت صفوف من الرجال والنساء نزل بها ما نزل بالآخرين، وهكذا. وحدث مثل هذا في بومباي وغيرها.

ومما يذكر أن رجال البوليس الهنود كانوا يمتنعون عن الضرب كلما آنسوا من الضباط الإنجليز انشغالاً عنهم، ولا يضربون إلا إذا ظهر الضباط ثانية.

ومن الغريب أن هذه الفواجع لم تثن الهنود عن تلبية نداء غاندي كلما دعاهم إلى المقاومة السلبية وعدم التعاون.

لقد تحققت المعجزة التي أرادها غاندي، وإذا لم يكن لنظرية "الساتياجراها" من فضل إلا أنها انتشلت هذه الأمة المنحلة المستسلمة من أحط درك العبودية التي وصلت إليه وأخرجتها من سباتها العميق، لكفى هذه الأمة التي رضيت الذلة، وتجردت من الوطنية، واستمات ضميرها الوطني، صهرها غاندي أمة واحدة تتحرك وتسير وتصاب، بل وتقتل وتموت دون تردد أو شكوى.

ولكن "الساتياجراها" لم تصل بالهنود إلى هذه الغاية فقط، بل وصلت بهم إلى نجاح بعد نجاح. فسلم الإنجليز لغاندي بمطالبه المختلفة أو أكثرها، وأخرجوه من السجن ليمثل الوطنيين الهنود في مؤتمر المائدة المستديرة، وأفرجوا عن المسجونين السياسيين، ووضعوا الحكومة الهند وحكومات المقاطعات نظاماً جديداً يقوم على برلمانات ووزارات أهلية ووزارات هندية، نعم إنها مكبلة بشتى القيود يسيطر عليها الموظفون البريطانيون، والكلمة العليا فيها للحكام البريطانيين، ولكن هؤلاء الحكام أدركوا أن الأحوال تغيرت وأنهم يجب أن يحدوا من استعمال سلطاتهم.

وما هذه إلا بداية، فالهند تسير إلى حريتها بخطى واسعة، وستصل إليها، وعلى إنجلترا أن تدرك أنه خير لها أن تبدأ من الآن في توسيع نظام الحكم الذاتي في الهند حتى يتولى الهنود مصائرهم وتسليم علاقاتها لهم على قواعد الصداقة والتحالف.

فرصة للإنجليز

يجب أن ينتهز الإنجليز فرحة غاندي لتغيير نظام الحكم في الهند لأنه الزعيم الوحيد الذي استطاع ويستطيع أن يقنع قومه باتباع خطة المقاومة السلبية وعدم العنف، وإذا مات هذا الرجل فلن يستطيع زعيم آخر صد النشأة الجديدة عن حركات عنيفة.

بل بين الزعماء الآن من يخالفون غاندي في رأيه، وفي مقدمتهم سوبهاس شاندرا بوز رئيس المؤتمر الوطني، فإنه ومن ورائه عناصر الشباب يرى أن الفرصة سانحة للقيام بعمل عنيف، للضغط على إنجلترا حتى ترد للهند حريتها.

المخالفون لغاندي

بل بعض الهندوس أنفسهم يتهمون غاندي في عقيدته، فمنذ سنوات وقف واحد منهم في مؤتمر دلهي يقول: "إنني أعارض خطة عدم العنف وعدم التعاون وأسألكم أهي من تعاليم الهندوسية؟ كلا! أهي من تعاليم الإسلام؟ كلا! أأقول لكم ما هي؟ إنها من تعاليم المسيحية".

ويقول له بعضهم إن الثورة الأيرلندية أثبتت أن الإنجليز لا يحترمون إلا القنابل والرصاص، ويقول آخر إن القديسين لا يصلحون للسياسة.

وكتب إليه ثالث يقول: "إن (الأحمسا)–عدم العنف– لا توافق الهند، لأن الهندوس كما سلم بذلك جبناء يستخدمون هذه الفكرة للتستر وراءها، أما المسلمون فمقاتلون بطبيعتهم والموت في سبيل الجهاد محبب إليهم".

وكتب إليه رابع: "ألا تظن أن المؤامرات المسلحة ضد شيء شيطاني ذميم أجدر بأية أمة من انتشار الجبن الفلسفي؟ وأعني به الجبن الذي شاع في أنحاء الهند طولاً وعرضاً بسبب نظريتك– عدم العنف"

وقد كتب غاندي مرة: "قال لي صديق مسلم أحبه وأحترمه.. إنني لا أؤمن بنظريتك عدم العنف، العنف هو قانون الحياة إنني لا أنال الحكم الذاتي بعدم العنف، يجب أن أكره عدوي".

مثل هذه الرسائل مئات ومئات ترد إلى غاندي، فينشرها في صحافته ويرد عليها وقد أشرنا إليها لندل على قوة الرجل الذي يستطيع أن يحمل أمة بأسرها على اتباع فكرته رغم وجود كثيرين من المخالفين حتى بين كبار زعماء الحركة الوطنية، ولندل الإنجليز على أن هذا الوقت هو خير الأوقات لتعديل سياستهم في الهند فلن يجدوا زعيماً يطيعه الهنود طاعة عمياء مثل غاندي.

ثم إن جواهر لال نهرو هو أكبر الزعماء نفوذاً بعد غاندي. سيكون زعيم الهند بعده، ولكنني لا أحسب أن جواهر لال ممن يؤمنون في حركات الاستقلال والحرية بالاقتصار على الخطط السلبية، بل أعتقد أنه ممن يقولون بضرورة تحصيل الاستقلال والحرية بعدم العنف أو العنف.

٤

المؤتمر الوطني ينشئه إنجليزي بنصيحة نائب ملك إنجلترا– الوطنية والدين– سوامي فيفكاناندا ومهاتما غاندي– ثورة على الأصنام– برهمي يؤلف تحفة الموحدين– براهما ساماج– ثورة أخرى على الأصنام– أريا ساماج– راما كريشنا– آثار الإسلام في الهند– أباطرة المغول– الأداب الأوردية– الإنجليز يذلون المسلمين– سمير أحمد خان– إنشاء كلية عليجرة.

سخرية القدر

قد يكون من سخرية القدر، أن هذا المؤتمر الوطني الهندي، الذي ينتسب إليه رسمياً أربعة ملايين عضو، ويؤيده عشرات الملايين في جميع أرجاء البلاد، قد يكون من سخرية القدر أن هذا المؤتمر الذي يعمل على تحرير الهند، من نير الإنجليز، ويجاهد في سبيل استقلالها، أنشأه منذ أربعة وخمسين عاماً إنجليزي كان موظفاً في حكومة الهند، وشجعه على تأليفه إنجليزي كان نائباً لملك إنجلترا في حكم الهند.

الوطنية والدين

تختلط الوطنية في الهند بالدين اختلاطاً كبيراً، ومرجع هذا تأخر البلاد، فإن مئات الملايين من الهندوس الذين تبادلتهم سيطرة المغيرين الأجانب، دولة بعد دولة وعشرات الملايين من الذين أذلهم الحكم البريطاني، ماتت فيهم العزة الوطنية، واستكانت الروح الوطنية، ورضوا العبودية واستناموا لها، فقد مرت عشرات السنين، بل مرت مئاتها بهم، وهم في غفوة، بل في

سبات عميق، اجتمع عليهم الظلم والجهل والفقر، وكل منها وحده يكفي لقتل شعب، فماتت فيهم الرجولة وانعدم منهم الإدراك وقتلت الكرامة والعزة، وصاروا أذلاء يرضون بالقليل، وبدون القليل مما هو في حكم العدم مثل هؤلاء لا يحركهم إلا الدين، الدين وحده هو الذي بعث فيهم عناصر الحياة من جديد، ولهذا يخطئ الذين يردون أصل الحركة الوطنية في الهند إلى سنة ١٨٨٥سنة تأسيس المؤتمر الوطني، بل لابد من ردها إلى ما قبل ذلك بنيف وخمسين سنة إلى حركة "براهما" و "آربا ساماج" و "راما كريشنا" وحركة عليجرة بين المسلمين، وغيرها.

ومما يصح ذكره أن سوامي فيفيكاناندا ومهاتما غاندي حركا بتأثيرهما الديني مئات الملايين من الهنود، وأيقظا فيهم حب الوطن، ونجحا في ذلك نجاحاً لم يصل إليه قبلهما زعيم سياسي قط.

بل كان لهما أثر بالغ في حركة المؤتمر ونهضته، ومع هذا فقد بقي سوامي فيفيكاناندا راهباً إلى النهاية ولم يدخل حلبة السياسة قط، وطالما جهر مهاتما غاندي بأنه ما أصبح زعيماً قومياً أو سياسياً إلا لينشر إيمانه بالله في عصر قوامة السياسة.

وإذكاء الشعور الوطني عن طريق الدين ليس معناه إذكاء التعصب الديني، فقد رأى القراء فيما كتبناه عن غاندي أنه يدعو كل شخص إلى التمسك بدينه أياً كان؛ فهو يريد أن يحسن إسلام المسلم وأن يتمسك المسيحي أو البوذي بتعاليم المسيحية أو البوذية، لأنه يعتقد أن في هذا صلاح الكل.

وفوق هذا فإن الحركة الوطنية، أو بعبارة أدق حركة المؤتمر، لا تفرق بين دين ودين فهي تشمل جميع الهنود على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

يثور على الأصنام

وقد أجمع مؤرخو الحركة الوطنية الهندية، وأيد ذلك التاريخ الرسمي للمؤتمر، على أن بداية الحركة الوطنية في الهند الحديثة ترجع إلى بداية القرن التاسع عشر، إلى النهضة التي قام بها راجا رام موهان روى منشىء جماعة "براهما" ويعدونه نبي الحركة الوطنية الحديثة.

ولد الراجا من عائلة برهمية قديمة وتعلم بمدينة باتنا بمقاطعة بيهار وكانت مركزاً مشهوراً للثقافة الإسلامية، وروي عنه أن عاداته وميوله تأثرت أكبر الأثر طوال حياته بتعليمه الأولى، ولما عاد إلى داره من باتنا في سن الخامسة عشرة من عمره وجد بينه وبين أبيه هوة سحيقة بسبب عبادة الأصنام فلم يستطع العيش مع أسرته، فهاجر وطاف الهند والتبت ثم استقر في "بنارس" واشتغل مدة في شركة الهند التي كانت تحكم البلاد واتصل ببعض الإنجليز.

ولما مات أبوه عام ١٨٠٣ نزع إلى مرشد آباد في البنغال ووضع كتاباً بالفارسية اسمه "تحفة الموحدين" حمل فيه حملة شعواء على الوثنية وتعدد الآلهة.

وترك خدمة الشركة سنة ١٨١٤ واستقر في كلكتا حيث أنشأ "اتمبا صابحا" أي جمعية الأصدقاء، واتصل ببعض المبشرين ودرس العبرية واليونانية لتفهم كتب المسيحية أيضاً.

ولم يقصر نشاطه على الناحية الدينية، بل عاضد النهضة الثقافية والاجتماعية، واشترك في إنشاء الكلية الهندوسية في كلكتا سنة ١٨١٩، وأيد الحركة التي انتهت بإبطال عادة "ساتي" حرق الأرامل مع جثث أزواجهن.

وفي سنة ١٨٢٨ أنشأ "براهما ساماج" (جمعية) لنشر عقيدة التوحيد ومقاومة تعدد الآلهة وعبادة الأصنام وإبطال الخرافات الدينية.

وكانت هذه أول حركة دينية هامة في الهند في القرن التاسع عشر، وقد اقتبس اسمها "براهما" من الكلمة السنسكريتية "براهمان" ومعناها (الله) ويظهر أن غاية راجا رام موهان كانت أن يصل إلى تجريد دين الهنود من الخرافات التي جعلته عرضة لحملات المبشرين، وجعله بحيث يوافق روح العصر العملية.

وإذا كانت الجمعية لم تتقدم في نشر تعاليمها كثيراً، إلا إنها نجحت في إثارة اهتمام الناس سواء لتأييدها أو لمهاجمتها، وتولدت عن ذلك حركات عدة دينية واجتماعية طوال القرن التاسع عشر، وكان من نتائج المناقشات الدينية، أن الناس أخذوا يتنبهون إلى كثير من الأوشاب التي علقت بالدين، وأدى الدين إلى ارتقاء في الأخلاق وإلى رغبة في تحقيق حق الفرد والأمة من العدالة والحرية.

ونزع راجا موهان إلى إنجلترا سنة ١٨٣٠ وبقي بها لحين وفاته سنة ١٨٣٣ عمل خلالها لحمل الإنجليز على تحسين حال الهنود، ويعده المؤرخون أبا الهند الحديثة وأول دعاة الوطنية فيها، وتعاقبت السنوات على

السماج وتولى أمرها كثيرون بينهم بعض أجداد تاجور شاعر الهند العظيم، وكان لها شأن عظيم في الحركات الاجتماعية والسياسية في الهند، وبعض رجالها كانوا من زعماء حركة المؤتمر الهندي.

آريا ساماج

وبينما كانت حركة "براهما ساماج" تنتشر في بلاد البنغال، كانت حركة أخرى تماثلها قد ظهرت في شمال الهند، يقوم بها كاهن مبشر هندوسي اسمه دا ياناندس ساراسواتي ولد سنة ١٨٢٤، وكان منذ صباه يستنكر عبادة الأصنام ولا يرى فيها شيئاً إلهياً، وقد أزعجت آراؤه أبويه فرأيا أن يزوجاه رجاء تحويله عن عقيدته الجديدة، ولكنه هو أيضاً فر من دار أسرته وضرب في أنحاء الهند، متلقياً علوم الدين حتى ظن أنه جمع منها الكفاية فأخذ ينشر الكتب والمصنفات داعياً إلى آرائه ثم أنشأ "آريا ساماج" في سنة ١٨٧٥.

وكان لا يعرف الإنجليزية فكان يخطب ويكتب بالهندية ولهذا كانت دعايته تصل إلى جموع الشعب.

وكان أساس عقيدته التي تمسك بها ودعا إليها هو أنه ليس هناك إلا إله واحد، وأنه لا يعبد عن طريق الصور والأصنام وإنما يعبد كروح ومما رغب الهنود في دعايته أنه أقر اعتقاد الناس في انتقال الأرواح، وفي الكارما (أن مصير الإنسان متوقف على أعماله)، وقدسية البقرة، ولكنه استنكر زواج القصر وتحريم الزواج على الأرامل.

وهكذا تمشت "أربا ساماج" نحو تعصير الديانة الهندوسية، مع تجنب مصادمة ميول الجماهير في بعض المسائل، وعصرت معها الشئون الاجتماعية في شمال الهند، وأخذت تنبه أهل البلاد إلى ضرورة التمشي مع حركة التقدم والعمران في العالم.

راما كريشنا

وفي قرية من قرى البنغال، في سنة ١٨٣٦ولد راما كريشنا، ولما كبر صار راهب القرية، ولم يكن له من العلم والمقدرة ما كان لديananد، ومع هذا فإن الطبقة الوسطى التي تعلمت تعليماً غربياً، وسواد أهل البنغال جعلوه بطلهم الوطني.

ذلك أن أولئك الناس ضاقت صدورهم بالثقافة الإنجليزية وما فيها من تفوق، فاتخذوا من هذا الراهب القروي العبقري شعار ثورتهم على تلك الثقافة.

وقد أوجد راما كريشنا حركة إصلاح اجتماعي كان لها نتائج سياسية أيضاً. ولما مات خلفه في نشر تعاليمه تلميذه سوامي فيفيكاناندا الذي لعب دوراً هاماً في إثارة روح الوطنية بين شباب الهند، وكان يحثهم على الاعتماد على أنفسهم في تحقيق غاياتهم القومية، ويقول لهم إن الهنود وحدهم هم الذين يلامون على ما وصلوا إليه من ذل واستعباد طوال ألف عام وهم الذين يجب أن يعملوا للتخلص مما هم فيه واسترداد حقوقهم وحريتهم.

حركة عليجرة

للإسلام في الهند آثار عظيمة، بل أهم آثارها التي تفخر بها، والتي تعرضها على السائحين في كل مكان، إنما هي من مخلفات الحاكم الإسلامي، بها تعتز الأقلية الإسلامية في الهند ويشير إليها زعماؤهم في مباحثاتهم الخاصة عن حركة الانقسام بين الهندوس والمسلمين.

كان جاري على مائدة السيد حبيب الله خان في لكناو نواب إسماعيل خان رئيس الحزب الإسلامي في المقاطعة المتحدة فكان من ضمن ما قاله لي: هل زرت الآثار في مدن الهند؟

قلت: نعم.

فقال: لأي عهد تنتسب؟

فقلت: لعهد المسلمين.

فقال: لقد كان المسلمون سادة هذا البلد.

وليس بحث اليوم مجال بسط النزاع بين الأقلية والأغلبية في الهند فإن له مجالاً آخر إن شاء الله، ولكني ذكرت ما تقدم لأدل على مبلغ النهضة الإسلامية في الهند واعتزاز المسلمين بها. تلك النهضة التي قضى عليها استسلام أباطرة المغول للترف والخمر، فمكنوا للأجنبي منهم، وسهلوا لعصبة من قرصان الإنجليز، جاءت باسم التجارة، أن تضع يدها على الهند مقاطعة بعد الأخرى.

ولكن الثقافة الإسلامية رغم هذا بقيت آثارها، والآداب الأوردية كان لها شأن في دلهي بين سنة ١٨٣٥و سنة ١٨٥٧، سنة الثورة المشهورة.

وقد كان يعيش في دلهي حتى سنة ١٩٠٨ بعض من اشتغلوا بنهضة آداب اللغة الأوردية لعهد آخر أباطرة المغول.

وإذا كان شعر رابندارانات تاغور قد نهض باللغة البنغالية وأحياها، فإن أثر الشاعر الكبير المغفور له محمد إقبال في الآداب الأوردية في بلاد البنجاب كان عظيماً.

وإلى اللغة الأوردية ترجمت عدة كتب من مؤلفات الغرب العلمية.

وقد استمرت هذه النهضة إلى أن جاءت الثورة فقضت على هذه النهضة الثقافية بين المسلمين، ذلك أن الإنجليز اضطهدوا المسلمين أشد اضطهاد وأنزلوا بهم أفظع أنواع الظلم والاستعباد، فقد اتهموهم بأنهم مضرموا نار تلك الثورة ليعيدوا إلى دلهي عرش المغول ويستردوا للمسلمين صولة الحكم والسلطان.

وكان من نتائج العسف والاضطهاد أن تضاءلت الثقافة بين المسلمين، ونزل الخراب بكثير من الأسر الكريمة، وساءت حالهم إلى أبعد حد في أغلب أنحاء شمال الهند، وفي دلهي نفسها كان بعض سلالة الأسرة المالكة يعيشون في ضيق وضنك وعوز لا مثيل له.

وتفشى الجهل بين المسلمين حتى بداية القرن الحالي وبالرغم من الجهود التي يبذلونها الآن فإنهم ما زالوا دون غيرهم من الطوائف عرفانا وثقافة.

وأمام هذه الحال المفجعة تحركت غيرة رجل هو سير سيد أحمد خان الذي كان قد خدم الحكومة خلال الثورة خدمات جعلت له حق الكلام في شئون المسلمين والشكوى مما وصل إليه أمرهم.

وكان لابد من همة كهمة سيد أحمد خان للتغلب على معارضة الإنجليز ومقاومة الرجعيين من علماء المسلمين الذين كانوا يعدون تعلم العلوم الحديثة حراماً وكفراً، وقد نجح وبفضل جهوده أنشئت جامعة عليجرة وكتب عنه سير تيودور–الذي عرفه عن قرب واشتغل معه في عليجرة من البداية– فقال: "كان سير سيد أولاً وآخراً مصلحاً دينياً، دعا قومه للعودة إلى قواعد الإسلام الصحيحة، واستنكر الخرافات والأوهام التي أدخلت عليه وأنذرهم بأن وسيلة النهوض الوحيدة في التعليم والتعليم الغربي، وليس في تلقي علوم الغرب ما يخالف الدين كما يزعم المولويون جهلاً. ألم يقل النبي: اطلبوا العلم ولو في الصين؟ لقد استهدف السير سيد لحملات شديدة واضطهادات اجتماعية بسبب شجاعته في الرأي، ولكن ذلك ما كان ليثنيه عن عزمه، وقد تغلبت شخصيته في النهاية على المعارضة والتشهير، وكان في أخريات حياته مسيطراً على آراء المسلمين، ولما مات ودفن في جانب مسجد عليجرة قال لي أحد أصدقائه: لقد صنف آخرون المؤلفات وأنشئوا الكليات، ولكن هذا الرجل أوقف تيار انحلال قومه وكأنما أقام في وجه هذا التيار حائطاً منيعاً، مثل هذا العمل إنما هو من أعمال الأنبياء، وهذا القول حكم صادق على شخصية سير سيد وعمله، أما أنا فيمكنني أن أقول إنني لم ألق في حياتي رجلاً يدانيه في عظمته".

هذه شهادة سير تيودور لسير سيد بعد وفاته.

وقد كان لحركة عليجرة أثرها؛ فإن الروح الجديدة شاعت في كل مدينة في شمال الهند وغيرها من الأوساط الإسلامية.

الفهرس

٤